الخلاصة في دروس تفسير جزء تبارك

الدرس الأول

- العلم له فضل وفضائل، وصاحب العلم له رفعتان: رفعة عامة، ورفعة خاصة، الرفعة العامة والخاصة اجتمعتا كما قال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، فأهل الإيمان رفعتهم عامة على غيرهم ممن ليسوا من المؤمنين. والرفعة الخاصة رفعة أهل العلم على سائر أهل الإيمان، ممن ليسوا من أهل العلم.
- ويعلم الجميع عِظم شأن التفسير، ومما يدل على عظيم شأن هذا العلم الشريف كثرة التصانيف في التفسير، مِن المخطوط، والمطبوع، والمفقود، وما يتعلق بالتفسير من العلوم الأخرى.
- وقد ذكر أهل العلم في تعريف التفسير تعاريف كثيرة، قال بعضهم:
  - إنَّ التفسير في اللغة مأخوذ من التفسرة.
  - وقيل: مأخوذ من مَسفرة؛ لأنها تُسفر عن وجه الأرض.
  - وقيل مأخوذ من الإسفار، وهو الإظهار، فالتفسير يُظهر ما يخفى من معاني.
  - وذكر آخرون في **تعريف التفسير اصطلاحًا أو شرعًا**، بأنه علم يُفهم به كتاب الله، المنزَّل على محمد -صلى الله عليه وسلم-، ويُستخرج من ذلك حِكَمه وأحكامه، ويُستمد من علوم اللغة، والنحو، وما يَتبع ذلك من كتب أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وقبل ذلك من سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- مِن أهمية هذا العلم أنه يَزيد الإنسان بصيرة بكلام الله تعالى،
- **طريقة تعين أو ترسّخ فهم الآيات في الذهن.**
  - **الأمر الأول:** أول أمر في هذه القضية وفي كل قضية: الدعاء، أن تدعو الله تعالى أن يرزقك العلم النافع والعمل الصالح.
  - **الأمر الثاني:** أن تقرأ السورة، وليكن مثلًا سورة تبارك، تقرأها أكثر من مرة، تعيد قراءتها؛ لأن التكرار يزيد رسوخ الألفاظ، ومن ثَمَّ يزداد الإنسان تشوُّقًا إلى فهم تلك الألفاظ.
  - **الأمر الثالث:** أن ترى الألفاظ الغريبة في السورة، التي لابد أن ترجع إلى كتب التفسير، أو اللغة.
  - **الأمر الرابع:** أن تأخذ الآية الأولى، تقرأ فيها، ثم تحاول وتشحذ الذهن؛ فتتذكر فوائد من هذه الآية، ثم هكذا إلى آخر السورة، ثم تعيد القراءة مرة أخرى، لعلك تزيد فائدة، أو تُبعد فائدة غير واردة في الموضع.

- **من أسباب رسوخ الفَهم لسور القرآن .**
  - أن تقرأ بالسورة في صلاتك.
  - مما يعين على بقاء الفهم ورسوخه: أن تُعلِّم غيرك.
  - مما يتعلق بترسيخ فهم السورة: الرجوع إلى كتب علوم القرآن.
- هل أسماء السور توقيفية يعني بالوحي؟ أو اجتهادية من الصحابة -رضي الله عنهم-؟.

فيها أشياء جاءت مسماة بالوحي، وأشياء من الصحابة، حتى قال بعض المفسرين، ومن التابعين وأتباع التابعين، حتى إن بعض السور قد يكون لها أكثر من عشرين اسمًا، وقد تشترك سورتان أو ثلاث في اسم واحد، كالفاتحة، والإخلاص، والكافرون، يسميها بعضهم سورة الإخلاص، وسورة الإيمان، وسورة الأساس.

- **سورة تبارك، لها أسماء كثيرة**.تسمى: "تبارك"، و "الملك"، وهذان الاسمان هما أشهر الأسماء. وتسمى المانعة، والمنجية، والمجادلة، والواقية، والمنَّاعة.
- هذه السورة نزولها مكي،
- هناك ضوابط وضعها بعض أهل العلم من علماء علوم القرآن، تعرف بها السور المكية من المدنية، يعني: علامات، **وبعض العلامات تجزم بأن هذه السور مكية، مثل:**
  - كل سورة فيها سجدة فهي مكية، فمتى ما مررت بسورة فيها سجدة فهي مكية.
  - كل سورة فيها لفظ "كلا" فهي مكية.
  - وذكر بعضهم أن كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية باستثناء البقرة وآل عمران، فيما أذكر، أو البقرة وسورة أخرى.
- سورة تبارك من فضائلها أنها سورة دافعت عن صاحبها حتى أنجته من عذاب القبر، وقال بعض شراح الحديث أن المراد ليس قراءتها فقط بل القراءة والعلم والعمل بها.
- هذه السورة الكريمة جاءت في بعض الأحاديث أن النبي -عليه الصلاة والسلام- كان يقرأها عند النوم، هي وسورة الزمر.
- الآية الأولى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [تبارك: ١].

تبارك: تعاظم وتقدس، قيل مَن كَثرت بركته وعظمت خيراته، وأعظم البركة والخيرات خيرات الله تعالى وبركاته، وهي تشمل مصالح الناس في حياتهم وفي برزخهم وفي آخرتهم، فما أرسل الله من الرسل، وأنزل من الكتب فهو من بركته وخيراته.

- ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [تبارك: ١]،

مُلك الله تعالى كامل، قال بعضهم: مِن الملوك مَن يَملك لكنه لا يُدبر غيره، ومنهم مَن يُدبر لكنه لا يَملك، ومنهم مَن يَملك ويُدبر لكن في تدبيره نَقص، وَيَعتريه الخلل من المرض، والنسيان، والنوم والموت. أمَّا مُلك الله تعالى فهو مُلك تام كامل، قد بلغ في الحسن أعلاه، وفي الكمال منتهاه، لا يَعتريه نقص ولا خلل.

- ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

قالوا: هذا من تمام الملك، يَملك المُلك التام، ولا يمتنع عليه فعل أي شيء، بل هو على كل شيء قدير، وكل شيء عليه يسير.

- الآية الثانية: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [تبارك:٢]، قدم الموت؛ لأنه أدعى للتأثر، وأدعى للإقبال على الطاعة، والموت يكرهه الإنسان بطبيعة الحال، ولهذا في الحديث القدسي: «يكره الموت وأكره إساءته» فتقديمه على الحياة مِن بَاب شَحذ الهمم، والاجتهاد في العمل.
- ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ يعني: هذه من حِكَمِ خلق الموت والحياة،الدنيا دار بلاء وابتلاء، ومن كمال عدل الله وحكمته أنه أقام الحجة وأوضح المحجة، فكان الابتلاء بِعدل، أرسل الرسل وأنزل الكتب، وأوضح السبل، ورتب للطائع أجرًا وثوابًا، وللعاصي وزرًا وعقابًا، يُعطي مَن يَشاء بفضله، ويمنعُ مَن يَشاء بعدله، ولا يَظلم ربنا أحدًا.
- ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .ليس المراد كثرة العمل، إنما المراد حسن العمل قبل كل شيء، ولهذا ذكر بعض المفسرين أثرًا عن الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى أنه قال: "أحسن عملا ما كان صوابًا خالصًا"، فالخالص أن يكون لله تعالى، والصواب أن يكون على هدي سنة النبي صلى الله عليه وسلم.
- ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾

عزيز في أحكامه، وغفور لمن أطاعه، ولمن عصاه -إذا تاب توبة نصوحًا-، يغفر ذنوب الطائعين السالفة لطاعتهم، ويغفر ذنوب المسيئين إذا تابوا توبة نصوحًا، بعز الإنسان في الحياة قد يعفو أو يَتَنَازل عن حقه وهو ذليل يخشى العقوبة لو لم يتنازل، لكن الله تعالى يصفح ويغفر بعزة وحكمة.

- ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

نستفيد مِن هذه الآية أن كثرة العمل لا يُمدح بها صاحبها، ولا تُشفع له، إلا إذا كان العمل كما تقدم آنفًا خالصًا لله تعالى، موافقًا لهدي النبي عليه الصلاة والسلام.

- ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ [تبارك:٣]، هذه الآية الكريمة تضمنت ذِكْرَ خَلقِ السماوات، وفي آية أخرى السماوات والأرض.
- ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾،ليس في خَلق الرحمن خَلَل، بل خلق الرحمن كمال في جميع الأحوال، خلق الإنسان، خلق الحيوان، خلق السماء، خلق الأرض.
- ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾

الفطور الشقوق، وارجع البصر، أي: أعد البصر، نستفيد فضل التأمل والتفكر في خلق الله تعالى، ولهذا جاء الأمر بالنظر في آيات كثيرة، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، نستفيد أنَّ النظر في مخلوقات الله تعالى وملكوته يَزيد العبدُ وجلا مِنَ الله، وخشية منه، وحبًا له، وطمعًا في مرضاته، واجتنابًا وفرارًا مِن سَخَطه ومعاصيه.

- ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾

تأمل في مخلوقات الله، حتى ذكر بعض المفسرين أو بعض أهل الحديث أن من السنة إذا قام الإنسان من الليل أن ينظر في السماء، في حديث ميمونة الرسول صلى الله عليه وسلم قام توضأ ورفع بصره ثم تلا الآيات الأخيرة من سورة آل عمران، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

- ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [تبارك: ٤]
- أَعِد البصر، مَن أَعَاد البصر والتفكر في خلق الله تعالى سيستفيد أمور عظيمة، كمال خلق الله تعالى لهذه المخلوقات، تجده خوفًا ومحبة لله تعالى، يزيد تعظيم الله تعالى في قلبه.
- ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [تبارك: ٤]،

البلاغة القرآنية، لو أراد الإنسان ينظر في هذا الملكوت، مهما بحث عن عيب فلن يجد عيبًا، مهما فعل، لماذا؟ لأنه تبارك الله أحسن الخالقين، أحسن كل شيء خلقه ثم هدى.

- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ هي النجوم، وهذه النجوم كما ذكر الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [تبارك: ٥]، كما أنها زينة في ذاتها للسماء، فهي أيضًا رجوم للشياطين، وقد أُثر عن "قتادة رحمه الله تعالى"، يقول: "خلق الله النجوم لثلاث"، يعني: لِحَكم ثلاث:
  - "زينة" كما في هذه الآية للسماء.
  - "ورجوم للشياطين" كما في هذه الآية،
  - ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ للمسافرين، المسافرون إذا سافروا في الصحراء يهتدون إلى طرقهم بفضل الله تعالى ثم بمعرفة منازل النجوم.
- ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [تبارك: ٦].

ما يظلم ربنا أحدًا، وهؤلاء الكفار قامت عليهم الحجة، ووضَحَت المحجة عليهم، وجاء الوعيد، عذاب جهنم.

- ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ نعم بئس المصير، أبأس مصير من كان مصيره النار.
- ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [تبارك: ٧].من شدة العذاب والنكال، أنه لو عذب الإنسان بصمت عذاب، لكن إذا كان فيه أصوات مزعجة، وضوضاء يجتمع عليه زيادة في العذاب.
- ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [تبارك: ٨]،

يعني شناعة في فعل النار، تتفرق تتقطع من غيظها، وأصوات شهيقة، وبئس المصير، فنعوذ بالله من حال أهل النار، ونسأل الله أن يباعدنا وإياكم عن النار وعن أسباب دخول النار.

- ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [تبارك: ٨]،

الله تعالى جعل هذا السؤال حتى تنقطع المعاذير، وإلا فالله لو عذبهم بدون حساب ما ظلمهم، لكن ليهلك من هلك عن بينة.

- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ استفهام، لا مجال للإنكار،
- ﴿قَالُوا بَلَى﴾،لابد من اعتراف، ما يستطيعون،
- ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾، ثم بينوا سبب إعراضهم،

- ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ﴾يعني الرسل وأتباع الرسل ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [تبارك: ٩].

كل هذه نستفيد أنها من عدل الله تعالى ورحمته، أنه لا يعذب من أطاعه، وأن من عصى وكفر وعاند الله ت عالى فلا يجني إلا على نفسه.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الثانى

- سورة الملك مِن أسباب تسميتها بـ"سورة الملك" يرجع إلى أنَّ فيها ما يقتضيه الملك من تدبير الأمور، وتوزيع الأرزاق، وحسن التصرف، والعدل في النَّاس، وهذه كلها من مقتضيات المُلك، والله تعالى هو المَلك الحق، ومُلكه كاملٌ لا نقصَ فيه.
- في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

فهم سمعوا لكن يسمعوا سمعَ الإجابة، ولم يُعمِلوا عُقولهم فيما يَنفعهم؛ لأنَّ الهوى حَكَمَهُم، ولهذا أعطى الله الإنسان العقل ليُميِّز به، ويَعقله عمَّا لا ينبغي، وسُمي كما قيل: "الحجر" لأنه يحجر صاحبه، فإذا ما وظَّف الإنسان عقله فيما ينفعه، وفكر فيما ينفعه؛ أصبح العقل وبالًا عليه.

- ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

يعلمون علم اليقين أنَّهم هم الذين أضلُّوا أنفسهم، ولو ما اعترفوا فقرائن الحال والمقال تدلُّ على أفعالهم، لكنَّهم لما غُلِّقت عليهم الأبواب، وقامت عليهم الحجَّة، واستبانت المحجَّة، لم يكن لهم العذر ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

- ثم قال ربنا -عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

ذَكَرَ أولئك المُعرضين، وذكر مآلهم وما صاروا إليه مِن العَذاب المُقيم بعدل مِن الله؛ لأن الله تعالى يُعطي مَن يشاء بفضله، ويُعذب ويَمنع مَن يشاء بعدله، ولا يَظلم ربك أحدًا.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾. والخشية نوع مِن أنواع العبادة؛ لأنَّ من أشمل وأجمع تعاريف العبادة ما ذكره شيخ الإسلام: اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأعمال الظَّاهرة والباطنة.
- فالعلمُ الخشية، ولهذا قال هنا: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ في الشهادة -أمام النَّاس- قد يمتنع الإنسان عن فعل المعصية من أجل النَّاس، قد يدفعه إلى فعل الطاعة ثناءُ النَّاس، قد يدفعه إلى فعل القُربى أمرٌ يرجو حصوله، أو يَتمنى دفعه عنه. هذا في الشهادة.
- ولهذا قال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، ذكر المغفرة والأجر: غفران الذنوب وتحصيل الأجور ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.
- ليس العبرة بكثرة التعبد، كما أخذنا في أول السُّورة: ليبلوكم أيكم أكثر عملا؟! لا. قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].
- ثم قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

قدَّم الإسرار لأنَّه هو الغاية في الغيب عن النَّاس، لكن لا يخفى على الله شئ، سواء أسررت فالسِّر عنده علانية. ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ قد يَخفى العمل عن النَّاس، لكن إذا ظهر عرفوه، فإذا كان العامل مختفيًا غائبًا عن أعينهم، فلن يسمعوا كلامه ولن يعلموا مراده.

- ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فيه أن الإنسان دائمًا يتفقد داخله، يتفقد نيته، يتفقد مراده، فقد يُظهر الإنسان العمل فيكون إظهاره للعمل مِن أجل مَدح النَّاس، وقد يقول القول ويفعل المعروف من أجل مدح النَّاس، فالله تعالى يعلم خفايا النفوس، وما تخفي الصدور.
- ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

كيف يخفى على الله سرَّهم وأمورهم وهو الذي خلقهم، ودبَّر أمرهم! فهذا حجَّة لإبطال ما يَزعمون.

- ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

قالوا من معاني اسم الله اللطيف: أن يُهيئ لعبده مِن الخير ويَسوقه إلى طُرق الخير مِن حيث لا يحتسب، وقد يبتليه بأمور مكروهة مِن لُطفه تعالى مآلها إلى خَير.

- ﴿الْخَبِيرُ﴾: أي: الخبير بأحوالكم وأموركم وجميع شؤونكم.
- قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]،

ذلولًا: مذللة، يُقال هذا بعير مُذلل، طريق مُذلل، أي: مُعبَّد، فذلولًا أي: مذللة لكم، منبسطة للزرع وللمشي، ثابتة بالجبال، كل هذا -بإذن الله تعالى.

- ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾، مناكب الرجل أي: أطرافه، وقيل: مناكب الأرض يعني أطراف الأرض.
- ثم قال: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ فعل الأسباب، وهذا مِن رحمة الله، ذلل الأرض، وسهَّل المشي في مناكبها؛ لأن ذلك مِن أسباب الرزق.
- قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]،

أي: إليه المرجع والمآل، فكل هذه أسباب، فمن حكمة الله أن ذلل الأرض، لتمشوا فيها، تسترزقوا فيها، تتكسَّبوا فيها، ثم مآلكم ومصيركم ومردُّكم إلى الله تعالى.

- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ﴾

مِن رحمة الله تذليل الأرض، ومن رحمة الله تيسير المشي في مناكب الأرض، ومِن رحمة الله تسهيل الأسباب.

- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إيمان بالقلب، وتصديق باللسان، عمل القلب والجوارح.
- قال تعالى: ﴿آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، آمنا بالله، وتوكلنا عليه، وفوضنا أمورنا إليه، مع فعل الأسباب.
- قال تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ يا من ترك هذه الأمور ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، نحن أو مَن آمن واستقام وتوكل، أو مَن أَعرضَ ولم يسمع، ولم يَعقل، سمِع سمْعَ مجرد، أي: سمْعَ الأصوات والحروف، لكن ما سمِعَ سمْعَ المريد للإجابة والطاعة.
- ثم قال تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾،

لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، إذا مارت الأرض، واضطربت حركتها؛ وتعطَّلت منافعها التي ذكرها الله في حال تذليلها وانبساطها، لهذا ترون إذا وقع زلزال لثوانٍ معدودة؛ ما الذي يحصل من المهالك، ويحصل مِن الضرر والخوف؟

- قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

"الحاصب": الرَّمل فيه حصباء حارة، الريح إذا هبت وزادت سرعتها تضر، وقد عاقب الله قومًا بالرِّيح، فتخيَّل أنَّ معها حاصب مِن الرمل الحار، ماذا يكون؟ يشتد العذاب،

- ثم ذكر الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾.طير صافات: أي: بَسط الأجنحة.
- ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾: بضم الأجنحة.
- ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ الطير ليس مِن السهولة إمساكه، الصيد شئ آخر، لكن صيده باليد مِن الصعوبة بمكان.
- قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ كل هذا الذكر -ذكر الآيات، وذكر الحاصب، وذكر مَور الأرض- كلها مِن باب أن يعلم هؤلاء أنَّهم في عدم سماعهم لما قُرأ عليهم، وعدم عقلهم لما طُلب منهم، أنَّ هذا كله محادة لله تعالى، وهذه صفات مَن حادَّ الله أو عاند الله.
- ثم قال: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾

مهما كانت الجنود في كثرتها، وعتادها، وعدتها، فلن تُغنِ عَنكم مِن الله شيئًا.

- قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ ماذا تفعلون؟ لو شاء الله لقال لهم: كونوا ترابًا، كونوا هباءً.
- قال تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ الغُرور إذا أصَابَ الشخص أعماه عن الحق، وقد يعرف أنه حق، لكن الكِبر، ولهذا جاء في الحديث: «**العزُّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني إزاري وردائي قصمته**»[1].
- قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾

فلو أنَّ الله تعالى أَمسَك رزقه، فمَنع السماء مِن المطر، ومَنَعَ الأرض مِن الإنبات، ماذا يكون حال النَّاس؟

- قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قال بعضهم: من يمشي مُكِبًّا هو: "أبو جهل"، ومَن يَمشي سويًّا هو: "الرسول صلى الله عليه وسلم" ولكن الصحيح أنَّها عامَّة.

- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ﴾

هو الذي ذَرَأَكُمْ، بدأكم، أوجدكم من العدم، ﴿أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾.

هذه وسائل: العقل ليفهم مُراد الله تعالى، والسمع، والبصر ليرى، ومَن حُرِّم هذه الأمور مِن توظيفها في طاعة الله، فبعض النَّاس يسمع لكنَّه أبكم، وبعض النَّاس أبكم لكنَّه يسمع، فالذي يسمع كلام الله ولا يُطيع الله، فهذا الأبكمُ ومَن يُطيع الله فهو خير منه.

- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾،

النَّاس أجناس، فيهم الأبيض والأسود، الفقير والغني، السليم والمريض -وهلم جرا في أرض الله- ولا تفاضل إلا بالتقوى، ومردُّ الجميع -المسلم والكافر- إلى الله تعالى، ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

- قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ استفهام ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

---

[1] صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب(٢٨٩٨) ولفظه "العزُّ إزاري والكِبْرياءُ ردائي فمَن نازَعني شيئًا منهُما عذَّبتُه".

يعني متى يأتي هذا الوعد؟! هذا أمرٌ غيبٍ، ولهذا الوعد إمَّا أن يكون عذابًا في الدنيا، أو في الآخرة يوم الحشر، يحتمل هذا وهذا.

- هنا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ نستفيد أنَّ الإنسان لا يتكلم إلا بعلم، فإذا كان عنده علم تكلم، وإذا لم يكن يعلم قال: لا أعلم. أمَّا الأمور الغيبية فأمرها إلى الله، ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ هذا الرسول صلى الله عليه وسلم. ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وظيفتي أنذركم وأبيِّن لكم، أمَّا متى يكون ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ غيب.
- **الغيب أنواع:**
  - **النوع الأول:** غيبٌ استأثر الله تعالى به بعض خلقه، فأطلعهم عليه،
  - **النوع الثاني:** غيب يُدرك، جعل الله له أسبابًا يُدرك به،

هناك غيبُ تخرُّصٍ وضلال، كالدعوى والكهنة والسَّحرة، وقُرَّاءِ الفنجان، وقرَّاءِ الكفِّ، هؤلاء دجَّالون كذَّابون أفَّاكون.

- قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾،

هنا يخاطب الكفَّار، سواءً أهلَكَنَا اللهُ أو رَحِمَنَا، لكن أنتم مَن يُنجيكم مِن عَذاب الله؟!

- قال تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ التقدير: لا يُجيرهم أحد.
- قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ نَحنُ أطعنا ربنا، وآمنا به، وتوكلنا عليه، وقد وعدنا وثبَّتنا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عندما تظهر الأمور، وتنكشف الحقائق.
- قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾
- أي: بعيدًا غائرًا، ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾، ذُكر في تفسير الجلالين عند هذه الآية أنها قُرأت عند أحد المتكبرين، فقال: تأتي به الفئوس والمعاول،؛ فأذهب الله ماء عينه وأغار ماء بئره.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس الثالث

- **سورة "القلم"**،أسماؤها:
  - تُسمَّى بسورة "القلم"، وتُسمَّى سورة "نون"، وتُسمَّى سورة "نون والقلم".
  - هذه السُّورة الكريمة آياتها: اثنتان وخمسون آية.
- نوع نزولها:
  - قيل إنَّها مكيَّة.
  - وقال بعضهم: إنَّها مكيَّة إلى قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾.
  - وقال آخرون: إنَّها مدنيَّة.

ولعلَّ الصَّحيح أنَّها مكيَّة، وقد نزل كثيرٌ مِن آياتها في الوليد بن المغيرة.

- **فضائل السُّورة:**

سورةُ القلم ورد فيها حديثان مكذوبان، وطالبُ العلم يعرفُ الحديثَ الصَّحيحَ ليعمل به ويُعلِّمه للآخرين، ويعرفُ الحديثَ الباطل المكذوب ليَحذرَه ويُحذِّرَ منه.

  - **الأول:** "مَن قرأ سورةَ القلمِ أُعطِيَ أجرَ الذين حسُنَت أخلاقُهم" .
  - **الثَّاني:** "مَن قرأ سورةَ القلمِ نوَّر اللهُ قلبَه وقبرَه وبيَّضَ وجهه وأعطاهُ كتابَه بيمينِه، وأجرى عليه بكلِّ آيةٍ يقرأها أجرَ مَن مات مبطونًا". والحديثان مكذوبان لا يصحَّان.
- هذه السُّورة بدأها الله تعالى بقوله: ﴿ن﴾ قال بعضهم: المراد بالنون الحوت،والصواب: أن ﴿ن﴾ من الحروفِ المقطَّعةِ.
- ﴿وَالْقَلَمِ﴾ [القلم: ١]، القلم: هو ما يُكتب به. وقال بعضهم: المرادُ هو القلمُ الذي كُتِبَ به القضاء عند الله تعالى، أي الذي تَكتب به الملائكة، والصواب: أنَّه يحتمل الأمرين.
- قال تعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ [القلم: ١]. أقسم الله بالقلمِ لعظيمِ شأنِ القلمِ.
- قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ لأن الغالب في الكتابة تكون في أسطر.
- ما أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ لأنهم قالوا له: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[الحجر: ٦]. فما أنت بنعمة ربك بمجنون بل هو -عليه الصَّلاة والسَّلام- في أشرف المنازل.
- ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: بالرسالة والهداية وأنك أفضل الأنبياء، وأن دعوتك أفضل الدعوات، فأنت في منزلةٍ رفيعةٍ وعاليةٍ، والمجنونُ مَن انتقصكَ، والمجنونُ مَن حاربكَ، والمجنونُ مَن اتَّهمكَ.
- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، أي: كثير غير مقطوعٍ.
- قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، الذي عظَّم ومدح خُلُق النَّبيِّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- هو الله -عزَّ وجلَّ.
- قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وهو -عليه السَّلام- حقيقٌ بهذا الوصف ويكفي أنَّ الله تعالى مدحه.

- قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ ستعلم يا محمد صلى الله عليه وسلم وسيعلم الذين اتَّهموك بالجنون وانتقصوك، وستكون النَّتيجة يراها الطرفان -أنت وهم.
- قال تعالى: ﴿بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ هل أنت مفتونٌ بما تقول ومجنون؟ أو هم باعتراضهم عليك مجانين ومُحارِبين ومعاندِين للحق؟
- قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ الله تعالى يعلم حال النَّاس جميعًا، ويُعطي مَن يشاء بفضله ويمنع مَن يشاء بعدله، وأقام الحجة وبيَّن المحجَّة.
- قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾، المُكَذِّب لا خير فيه ولن يأتيك بخير، والآية دليلٌ على قُبحِ خصلةِ الكذب.
- قال تعالى: ﴿لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾. قيل في معناها:
  - ❖ لو تلين عن دينك فيلينون عن عداءهم له.
  - ❖ وقيل: لو تعرض عن دينك فيعرضون عن إيذاءهم لك.
  - ❖ وقال بعضهم: تعبدُ آلهتهم ويعبدون آلهتك.
- قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾. هذا أولى النَّاس به مَن يدعو النَّاس للخير، ولاحظ صيغة المبالغة "حلَّاف"، أي كثير الحلف.
- قال تعالى: ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ لأن احتقار النَّاس له لمهانته، يحاول يُرقِّع نقصه وفقره العلمي والعَقَدي بالحلف.
- قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾، كلها صفاتُ قُبحٍ وذمٍّ، وصفات مبالغة. ﴿هَمَّازٍ﴾، أي: كثير الهمز.
- ما الفرق بين الهمز واللمز؟
  - ❖ قال بعضهم: الهمزُ واللمزُ بمعنًى واحدٍ.
  - ❖ وقيل: الهمزُ ذكر الشخص في حضوره، واللمز ذكره في غيابه.
  - ❖ وقال آخرون: الهمز بالقول، واللمز بالفعل.
- الهمزُ واللمزُ يكون بالقول والفعل في حضورٍ أو غيابٍ، وكلها مُحرَّمة ولا تجوز.
- قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ فوصف حاله بأنه يمشي بالنميمة، من باب أولى في قعوده وجلوسه وإضجاعه، يعني كثير النميمة، فيمشي بها بين النَّاس، يحدث هذا وهذا، فكلما حدَّثَ أحدًا تتَّسع دائرة النيمية، فيعظُمُ إثم صاحبُها الأولِ.
- قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ يمنع خيره القولي، وخيره الفعلي، وخيره المادي، لا ينفع بلسانه، ولا ينفع بجوارحه، ولا ينفع بماله، وهذا شر كله.
- قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ﴾ ظالم يتعدى على غيره.
- قال تعالى: ﴿أَثِيمٍ﴾ يفعل الآثام من الأقوال والأفعال، كلها صفات قُبح، فلاحظ قوله: ﴿حَلَّافٍ﴾ ﴿مَّهِينٍ﴾ ﴿هَمَّازٍ﴾ ﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾، ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾، ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾، وأولها: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾، كلها صفاتُ ذمٍّ وقبحٍ، وينبغي لطالب العلم أن يكون أولى النَّاس بالبعد عنها، وبتعليم النَّاس لها.
- قال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾، العتل: المتكبر الجوَّاظ المستكبر.

- قال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾، الزنيم: يعني أن فيه علامة، فما يُعلَّق في عنق الشاة أو في أذنها، ما يُعلَّق في العنق يسمى "زَلَمَة"، وما يُعلَّق في الأذن يسمى "زَنَمَة".
- قال تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ هذا المعاند للخير، من أسباب عناده أنه صاحب أموال، وصاحب أولاد. ودائمًا هذه الأمور تكون استدراجًا من الله لهؤلاء، فيغترون بأموالهم وأولادهم، ويزدادون عداءً للخير.
- قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، بعض النَّاس إذا يسمع الآيات لا يؤمن بها، فيسكت ولا يردها، ولا يسخر منها، ولا يعارضها، قد يتأمل فيها في نفسه، أو لاحقًا، لكن هذا المعارض بلغ من الشّر مبلغًا، فقال: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: أخبار الأولين، وما يقصُّون من أخبار الأوائل، فهو عناد وكبر بكل ما تعنيه كلمة عناد وكبر، وهو يعلم أن هذا حق، ويعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم حق.
- قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾، سَنَسِمُهُ: نجعل له علامة.
- ﴿عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ ما المراد بالخرطوم؟

المراد به الأنف، وهو أبرز علامة في الوجه، فإذا خُتِمَ الوجه أو جاءت علامة فيه تكون أبرز من غيرها.

- قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ هؤلاء الكفار الذين عاندوك قد أعطيناهم من نعيم الدنيا الشيء الكثير. وشبَّهَهُم في الآية بأصحاب الجنَّة –البستان- الذين آتاهم الله بستانًا فيه من النَّعيم والخضرة، وفيه من الثِّمار الشيء الوفير، فهؤلاء يا محمد الذين عاندوك اغتروا بدنياهم، كما اغتر أصحاب الجنَّة بجنتهم. والمراد بالجنَّة هنا: البستان.
- قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا﴾، أقسموا أي: حلفوا.
- هؤلاء أناس عندهم بستان، لا يريدون للفقراء حظًّا من هذا البستان، فأقسموا أن يخرجوا مصبحين -لاحظ سوء العمل وسوء القول- فأقسموا على عملٍ ونيةٍ فاسدة وسيئةٍ، ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ أي: يقطعون ثمارها ويُجِذُّونها. ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: في الصباح مبكرين؛ حتى لا يراهم الفقراء، فهم لا يأتون إلا وسط النهار.
- قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، يعني ما قالوا: إن شاء الله.
- قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾، الطائف قيل: ريح، وقيل غير ذلك.
- قال تعالى: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ قد بيَّتوا النية على الذهاب جماعة للتَّلذُّذ وأخذ ما زرعوا.
- قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ لا شيء فيها، إذا صُرِم النخل انتهى ثمره، فلم يروا فيها أثرًا.
- قال تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا﴾ فتنادوا للذهاب لها.
- قال تعالى: ﴿مصبحين﴾، أي في الصباح الباكر.
- قال تعالى: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ لا يعلموا الذي حصل لها بالليل.
- ﴿أَنِ اغْدُوا﴾، أي اذهبوا، الغُدُوُّ: هو الذهاب أولَّ النهار.
- قال تعالى: ﴿عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾، أي: إن كنتم تريدون جُذاذ الثَّمرة.
- قال تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا﴾ التعبير بالانطلاق من الإسراع والعجلة، وهذا الإسراع تشوقًا لأخذ الثمرة، وفي المقابل من باب إخفائها عن الفقراء.

- قال تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ انظر إلى الخُبث! يتخافتون حتى لا يسمعهم أحد، فكل هذه الأمور - القسم، والذهاب، وعدم الاستثناء، والتخافت في الكلام- من باب إغلاق الطرق على مجيء الفقراء.
- قال تعالى: ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ لا يشارككم أحدٌ من المساكين هؤلاء.
- قال تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾، أنهم هيئوا القوة الحسّية والمعنويَّة للجُذاذ، لكن ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ رأوا جنَّتهم وبستانهم الذي كانوا يُؤمّلون بقطفه، ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ قيل المراد: أنهم قالوا أخطأنا مكانها، أيُعقل بعد أن كانت فارهة بالثمار، والآن هي هذه! إذن نحن أضللنا مكانها. لكن هذه الدَّهشة اليسيرة زالت بعدما وعوا أن هذا هو البستان الذي زرعوه، وما بينهم وبين موعد الثمار إلا ساعات، فأذهبها الله تعالى.
- قال تعالى: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أقروا وعلموا واستيقنوا أن هذه عقوبة حلّت بهم، وحرمتهم من ثمارهم.
- قال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ وهنا المراد بالأوسط: أعدلهم، وأعقلهم، وأفضلهم .
- قال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، يعني وعظهم، ونصحهم، وذكَّرهم بأن يكفوا عن ما همُّوا به، وأن يسألوا الله تعالى من فضله، ويسبحون الله تعالى ويعظمونه، فتذكروا وصيَّة صاحبهم، ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.
- قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، قال بعض المفسرين: إنهم رجعوا إلى ربهم، واعترفوا لمَّا علموا خطيئتهم، ورأوا عقوبة الله تعالى في بستانهم، ومع أن الله عاقبهم، لكن من رحمته -عزَّ وجلَّ- أن رحمهم بأن العقوبة أصابت البستان والثمر، ومن رحمته أنه أمهلهم فتذكروا خطأهم.
- قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، ظلمنا أنفسنا، وظلمنا الفقراء.
- قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ هذا من التوبة النصوح، أن الإنسان إذا عرف خطأه رجع، سواءٌ كان واحدًا أو كانوا جماعة، فإذا أخطئوا ذكَّر بعضهم بعضًا بخطئهم، وذكَّر بعضهم بعضًا بالتوبة من خطئهم.
- قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ يلوم كل واحد صاحبه.
- قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ هذا أيضًا من الاعتراف بالذنب ﴿إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ الطغيان: هو تجاوز الحد. يعني أننا جاوزنا حدَّنا ولم نشكر نعمة الله تعالى، ولم نعطِ الفقراء حقهم، ولم نرعَ هذه النعمة حق رعايتها.
- ثم دعوا ربهم: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾.

  أصحاب الجنَّة لما أرادوا معصية الله، وحرمان الفقراء، انقلبت الآية عليهم، لكنهم هنا تابوا.
- قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ هذا في الدنيا، فأصابهم غمٌّ وهمٌّ ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾، يعني إذا رأيت نعيم الدنيا وأعظمته، فاعلم أن نعيم الآخرة أعظم، وإذا حلَّت مصيبةٌ في الدنيا أو عذابٌ بأحد، فاعلم أن مصاب الآخرة وأن عذاب الآخرة أعظم. ولهذا دائمًا الربطُ بين حوادثِ الدنيا والآخرة يَزيدُ المؤمن إيمانًا.
- بعدما ذكر الله حال هؤلاء المعاندين والمكذبين، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ هذا جزاءً وفاقًا من الله -عزَّ وجلَّ- فالعاقبة للتقوى، والعاقبة للمتقين، والتقوى تعريفها: أن تعبد الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معاصي الله، على نور الله، تخشى عقاب الله.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الرابع

- قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ مِن حكمة الله أنَّه يُعطي مَن يشاء بفضله، ويُعاقب مَن يشاء بعدله، ولا يظلم ربنا أحدًا.
- قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ لا يستويان مَثلًا، وتأبى حِكمةُ الله -عزَّ وجلَّ- أن يكون هؤلاء كهؤلاء، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الجاثية: ٢١]، ما يكونون! الظلماتُ مَا تَستوي مَعَ النَّور، ولا الظلُّ ولا الحرور، هذان متضادان، فللمسلمين جزاء وثواب، وللمجرمين جزاء وعقاب، وكل ذلك بفضل الله تعالى للمؤمنين، وبعدله مع المُخالفين.
- قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، أي أنَّ هؤلاء المجرمون بماذا يحكمون بأنفسهم، وبأيِّ حجَّةٍ يدافعون عن باطلهم؟.
- قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾، يعني: هل لكم كتاب درستم فيه أنَّكم على حقٍّ، وعلى هدًى، وأنَّ من خالفكم على ضلالة؟ كل هذا تخرُّصٌ وأسلوبُ عنادٍ من باب ردِّ الحق، وإحقاقِ الباطل.
- قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ هَب أنَّ لكم كتابًا كما تزعمون، فتخيروا إذن ما شئتم. فأنتم على ضلالٍ ليس لكم حجّة، وليس لكم برهانٌ، وكل ما تقولون وتفعلون مِن دواعي الشَّيطان والكبر.
- قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: هل لكم عُهود ومواثيق في زعمكم هذا؟ أنتم الآن مُصرِّون على باطلكم. ما الذي دعاكم للباطل؟ هل عندكم كتاب فيه هذا الأمر؟ هل عندكم منَّا مواثيق وعهود على ما أنتم عليه؟.
- قال تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ مَن الكفيل ومَن الضَّامن لكم؟ من المُدافع عنكم؟ مَن تكفَّل لكم بأنَّكم على حقٍّ وضَمِنَ لكم النَّجاة من عذاب الله؟
- قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فهؤلاء الشركاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، فضلًا عن أن يدافعوا عن غيرهم.
- قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ فهم ما تركوا سبيلًا ولا حجَّة ولا شبهة إلا لَبِسوها في سبيل ردِّ الحق، فليس لكم علينا أيمان ولا عهود، ولا مواثيق، وليس لكم ضامن يضمن لكم النجاة، ولم ينزل عليكم كتاب، إنَّما كل هذا بما تهوى أنفسكم.
- ثم قال ربُّنا: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ جاء في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- أنَّ يوم القيامة: **"يكشِفُ رَبُّنا عن ساقِه، فيسجُدُ له كلُّ مؤمنٍ ومُؤمنةٍ"**[٢]، **إلا مَن أبى السجود، "فيكون ظهره كصياصي البقر، لا يستطيعون"**[٣]، والسَّاق صفةٌ لله تعالى تليق به.

---

[٢] صحيح البخاري (٤٩١٩). ولفظه" يكشِفُ رَبُّنا عن ساقِه، فيسجُدُ له كلُّ مؤمنٍ ومُؤمنةٍ، ويبقى كلُّ من كان يسجُدُ في الدُّنيا رياءً وسُمعةً، فيذهَبُ لِيَسجُدَ، فيعودُ ظهرُه طبقًا واحدًا".

[٣] اللفظ: " وتبقَى أقوامٌ ظهورُهم مِثل صياصي البقرِ فيريدونَ السجودَ فلا يستطيعونَ" صعفه الألباني في تخريج كتاب السنة (٦٣٠).

والقاعدة: القولُ في صفةٍ كالقول في سائر الصِّفات، وما أثبته الله تعالى لنفسه نُثبته حقيقةً دون تشبيهٍ أو تكييفٍ أو تمثيلٍ.

- قال تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ فأبصارهم خاشعةٌ من الذُّل، ويُرهقهم ذلُّ المعاصي، فذل المعاصي إذا لبسه أو كُسي به الشخص يكون عقوبة مِن الله وعلامة الخسران.
- وقد كانوا في الدنيا يُدعون إلى السجود وهم سالمون، والحقُّ أبلج، لكن لمَّا كابروا وعاندوا، كان جزاؤهم كما قال الله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾.

والجزاء من جنس العمل. فهم عاندوا في الدنيا، فلم يُوفَّقوا في الآخرة، ومَن أطَاعَ في الدنيا، وُفِّق في الآخرة.

- قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ القرآن الكريم يسمى "حديثًا" في آيات كثيرة، ومنها: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾.
- قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ الاستدراج: أن يفيء عَليهم مِن نعم الدنيا كالمال والبنين والمساكن والضياء والأصحاب؛ فبهذا الاستدراج يظن أنه في قوَّة وفي خير وعلى هدى.
- قال تعالى: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا ورد في الحديث: «إنَّ اللَّهَ يُملي للظَّالمِ»[4] يعني بنعمه وخيراته «فإذا أخذَهُ لم يُفلِتْهُ»، وما يسبغه الله على الشخص مِن نعم قد تكون رفعة له، وقد تكون عقوبة عليه. فإذا وظَّفها في طاعة الله فهي رفعة له، أمَّا إذا وظَّفها في معصية الله فهي عقوبة وحجَّة عليه.
- قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ إذا أخذ الله أحدًا أخذه كما وصف في قوله: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، يعني: قد يتوعدك في الدنيا صاحبُ جاهٍ وسلطانٍ وقوَّة، لكن قد لا يستطيع أذيتك، فقد يموت، وقد يَنسى، وقد يَضعف، وقد تَفر أنت منه، أمَّا في شأن الله لا مَفرَّ مِنَ الله إلَّا إلى الله.
- قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ يعني: أنت الآن هل سألتهم أجرًا على دعوتك لهم وتثاقلوا هم هذا الأجر؟
- قال تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾، يعني هل يعلمون الغيب حتى يضمنوا نجاة أنفسهم؟ وهذه كلها قواطع لباطلهم.
- قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الحكم هنا حُكمان: الحُكم القدري، والحكم الشرعي، وكل مسلم مأمور بأن يصبر لهذين **الحكمين.**
  - الحكم القدري: مَا يُصيبك مِنَ المصائب في الدنيا مِن أقدار الله، اصبر لا تتجزَّع، لا تتسخَّط، لا تعترض على قضاء الله وقدره، هذا الصَّبر على الأحكام القدريَّة.
  - الصبر على الأحكام الدينية يكون بامتثال الأوامر واجتناب النواهي بالتسليم والقبول والانقياد وعدم الحرج، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: ٦٥]، لاحظ قال: ﴿حَرَجًا﴾ وهي نكرة، أي: لا يكون لديك أدنى مثقال ذرة مِن الحرج، ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] يعني الانقياد، وعدم الممانعة، بدون توقف أو تردد.

---

[4] صححه الألباني في صحيح ابن ماجة (٣٢٦١).

- قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يونس بن متى -عليه الصلاة والسلام- أُلقي في بطن الحوت.
- قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، أي: مهمومٌ مغمومٌ.
- فَنَادَى في الظلمات، قيل الظلمات هي: ظلمة الليل، والبحر، وبطن الحوت. فقال: ﴿أَن لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].
- قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كل شيء لا يكون إلا بتوفيق الله، لا يكون شيء مِن خَيرٍ في هذه الدنيا، ولا رفع بلاء، إلا إذا شاء الله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].
- قال تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾، العَرَاء: هو الأرض الخالية الجرداء، ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ لكنَّ الله اجتباه وتاب عليه، ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.
- **قال تعالى:** ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ قال بعضهم: من شدة نظرهم، أي: ينظرون شزرًا بحقد وعداوة للنبيِّ -عليه الصلاة والسلام- إذا قرأ القرآن الكريم.
- قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ يعلمون أنَّه أعقل العقلاء، وهذا العلم علم يقيني عندهم ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ولكن: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].
- قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾، أي كل العالمين.
- الحاقة سورة مكيَّة، وهي اثنتان وخمسون آية، وورد فيها حديث لكن لا يصح: "من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حسابًا يسيرًا".
- سورة الحاقة بدأها الله تعالى بقوله: ﴿الْحَاقَّةُ﴾، والحاقة: هي اسم من أسماء يوم القيامة، والقيامة لها أسماء كثيرة، منها: القارعة، الحاقَّة، الطَّامَّة، الصَّاخَّة، إلى آخره.
- فالاستفهام في صدر الكلام يجعل السَّامعين يتنبهون ويتيقَّظون أكثر، لاحظ أنَّ القرآن الكريم فيه كثير من هذا الأسلوب ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة: ١، ٢]، ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾ في ثنايا الكلام ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٦، ١٧]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين: ١٩].
- قال تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾، أساليب استفهام غرضها التشويق لما سيكون بعدها، إذن نستفيد أنَّ طالب العلم، أو الواعظ، أو المتكلم؛ يحاول أن يُضمِّن كلامه استفهامًا يجيب عليه، أو يجعل السَّامعين يشاركونه في الجواب، فيكون ذلك أرسخ في أذهانهم.
- قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ تكذيب الرسل، وما وعدوا به، وما أخبروا به من أمور العقائد، هذا دأب أعداء الرسل دائمًا.
- قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾، ثمود هم قوم صالح، وديارهم الحِجر، ﴿وَعَادٌ﴾ قوم هم هود.
- قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾، يعني بالقيامة، كما كذبت قريش بالبعث، فكان الجزاء من جنس العمل لما كذبوا وأنكروا وجحدوا.
- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ قوم صالح ﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾، وقد جاء في سورة الأعراف، وسورة هود تفصيل لما أصابهم، يعني أشمل مما جاء هنا بالإجمال.

- قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، الصرصر: الباردة الشديدة، العاتية المزعجة.
- قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾ ما كانت يومًا واحدًا، أو ساعة واحدة، ولكن كان عذابًا أليمًا وفظيعًا حكمة من الله تعالى.
- قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ متتابعة، يسمون صاحب الكي الذي يكوي :حَسَم، أي يعود ثم يكوي ثانية، ثم ثالثة، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ بلياليها.
- قال تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ نخلة قديمة في عمرها، خوت ذبلت، يبست، سقطت.
- قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ انتهى أمرهم، هذا العذاب لو كان ساعة واحدة لقضى عليهم، ولكن الله جعله سبع ليال وثمانية أيام من باب شناعة جرمهم وخطيئتهم.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس الخامس

- سورة الْحَاقَّةُ سورة مكيَّة، وآياتها اثنتان وخمسون آية، وقد ورد في فضل قراءتها حديث، لكنَّ الحديثَ لا يصح: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْحَاقَّةِ، حَاسَبَهُ اللَّهُ حِسَابًا يَسِيرًا»[٥].
- ﴿الْحَاقَّةُ﴾ اسم من أسماء القيامة، و "حقَّت" يعني: وجبت.
- قوله: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾، استفهامات متعاقبة للتَّشويق والاهتمام والتَّنويه بهذه الحاقة.
- جاء الجواب: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ ثمود قوم صالح -عليه الصلاة والسلام- كذَّبوا بخبر نبيِّهم -عليه الصلاة والسلام- ولم يُصدِّقوا ما جاء به.
- هناك ضابط ذكره أهل المعتقد: مَن كذَّب رسولًا واحدًا، فهو مُكَذِّبٌ لجميع الرُّسل.
- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾، طغوا وتكبروا، خطيئتهم عظيمة، ﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾، قيل: بما طغوا، وقيل: الطَّاغية هي الصَّيحة التي عاقب الله بها قوم صالح.
- **الفرق بين "الريح والرياح":**
  - ذَكَرَ بعضهم أنَّ الرياح أتت في القرآن الكريم بالرحمة: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، ﴿الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦].
  - أمَّا الريح فجاءت بالعذاب: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، وهنا: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾.
- الريح الصرصر: هي الرِّيح الشَّديدة في البرودة والهبوب.
- عذاب الأمم يتنوع، ولله تعالى في ذلك حكمة، فقوم يهلكون بالغرق، وقوم يهلكون بالصَّيحة، وقوم يهلكون بالريح ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].
- قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: بقيت هذه الريح أيامًا، فلو بقيت لحظات لكانت مؤلمة ومزعجة، فكيف إذا بقيت ساعة! فكيف إذا بقيت أيامًا!
- قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أسبوعًا كاملًا وليلةً، وهذا الوقت جزء يسير منه يكفي في أن يتعذَّب ويتألم أصحابه، فكيف بها مجتمعة متوالية؟!
- قال تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ﴾ يقصُّ الله تعالى أخبار هؤلاء للعِبرة والاعتبار.
- "فرعون" اسم لمَن مَلَكَ مصر، "النجاشي" وصف يطلق على شخص يحكم الحبشة،و"كسرى" وصف يطلق على شخص يحكم الفرس،و"هرقل" وصف على شخص يحكم الروم، و"المقوقس" وصف على شخص يحكم الأقباط.

---

[٥] قال ابن حجر العسقلاني في الكافي الشاف (موضوع)

- قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ هم قوم لوط -عليه الصَّلاة والسَّلام- وإفكهم: هو عمل الفاحشة في الذكران من العالمين، وهذا العمل تأباه المروءة، وتأباه النفوس، وتأباه الطباع، فهم خرجوا عن الفطرة بهذا العمل المشين القبيح.
- قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ في وقت نوح -عليه السلام- لما جاء الطوفان والغرق عقوبة مِن الله لقوم نوح، استُثني قوم نجَّاهم الله تعالى مع نوح -عليه السلام- وهم أصحاب السَّفينة، ومع طول مدة نوح -عليه السلام- وتنوع أساليب دعوته لقومه، ولين نوح -عليه السلام- وجميع الأنبياء مع أقوامهم، إلا أنَّهم طغوا وبغوا، وما آمن معه إلا قليل.
- قيل إنَّ المقصود بـ"الجارية" في قوله: ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ أي: السَّفينة، الفلك المشحون، وقيل: حملناكم في أصلاب آبائكم.
- وقال بعضهم في قولهم: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ كل ما رأوا السفن، تذكَّروا السفينة الأولى، التي جعلها الله تعالى نجاةً لنوحٍ -عليه السلام- وقومه المؤمنين، وتذكَّروا أنَّ هذه مِن نِعم الله أن حمل المؤمنين، وبقيَ مَن في أصلابهم إلى هذه السَّاعة.
- الإنسان إذا رأى شيئًا يذكِّره بالنِّعم يتَّعظ، ويحمد الله -عز وجل- وفي المقابل إذا رأى شيئًا يذكره بالنِّقم يتَّعظ ويخشى الله.
- قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا﴾ **المواعظ التي نسمعها لا تنفع أصحابها إلا إذا توفر فيهم أمور:**
  - قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ٩- ١١]، الذكرى تنفع من يخشى.
  - والعمل بالموعظة إذا سمعها الإنسان، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾.
  - قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ فمجرد السَّماع لا يكفي إذا لم يصاحبه وعي وتقبُّل وانقياد في فعل الطاعات، وانقياد لتجنُّب وترك الخطيئات.
- قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، جاء في الحديث، قال صلى الله عليه وسلم: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ»[٦]، الصُّورمن أسمائه النَّاقور، والقرن.
- قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ النفخات في الصُّورِ ذكر أهل العلم فيها كلامًا:

فمنهم من قال: إنَّ النفخ نفختان، وقال بعضهم: بل هي نفخات ثلاث، الثالثة نفخة الفزع، سورة النمل: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]، وابن حزم -رحمه الله تعالى- يرى أنَّها أربع نفخات.

- قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ هذا النَّفخ من أشراط السَّاعة الكبرى، وهذا النفخ يتولاه أحد الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- الموكَّل بالنَّفخ في الصُّورِ، اسمه إسرافيل.
- قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، هذا المقام مقام فزع، كما ذكر الله أنَّ النَّاس يفزعون، بل يُصعقون، فإذا قرأ الإنسان مثل هذه الآيات، ينبغي أن يقف عندها، وهو يرى الصوت الرفيع للرياح في

---

[٦] سنن الترمذي (٣٢٤٣) وصححه الألباني.

الدنيا يكون مزعجًا وفيه خوف وقلق، مع أنَّها وقتيَّة وتنتهي، ثم تستمر الحياة بعدها، فكيف في موقف قد أُخبرنا أنَّه نهاية الدنيا، وأن بعده حساب وعقاب، لطف الله بالجميع.

- قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ يعني: قامت القيامة التي جاءت علاماتها توطئةً ومقدمةً لها لتحقق وقوعها، ومن حكمة الله ورحمته أنَّ هناك مقدمات لهذه القيامة، وهذا فيه فوائد: منها رحمة الله تعالى بالخلق، فعلامات الساعة وأشراط الساعة التي جاء الوحي بها هي نُذُر؛ ليتَّعظ ويتنبَّه الغافل، ويزداد الطائع ثباتًا.
- قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ الأرجاء هي الأطراف، قيل: يبقون على أطرافها بعد انشقاقها.
- الملائكة -عليهم الصلاة والسلام- خلقٌ من خلقِ الله، مخلوقون من نور كما في النصوص، ولهم صفات خَلقية، وخُلقية.
  - ❖ من الصفات الخَلقية: في سورة فاطر ذكر الله بعضها: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١].
  - ❖ من الصفات الخُلقية: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ»[٧].
- الإيمان بالملائكة -عليهم الصَّلاة والسَّلام- من أصول الإيمان الستة، وقد أخبرنا الله تعالى ببعضهم، وببعض وظائفهم.
- قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾، العرش عرشٌ حقيقي، جاء ذكره في القرآن الكريم في آيات كثيرة، والله تعالى استوى عليه استواءً يليق بجلالته وعظمته، من دون تمثيل أو تشبيه أو تكييف، وذُكر الاستواء في سبع آيات.
  - ❖ العرش في اللغة: سرير الملك.
  - ❖ وفي الاصطلاح: هو عرش الرحمن، عرش حقيقي، له صفات، **ذكر بعضهم منها:**
    - ❑ أنه أعلى المخلوقات.
    - ❑ وأثقل الموزونات «سبحان اللهِ وبحمدِه، عددَ خلقِه ورضَا نفسِه وزِنَةَ عرشِه»[٨].
    - ❑ وأرفع المخلوقات.
    - ❑ من صفات العرش: أنَّ له قوائم، قال -عليه الصلاة والسلام: «فَأَكُونُ أولَ مَن يُفيقُ، فإذا أنا بموسى آخِذٌ بقائمةٍ من قوائِمِ العرشِ»[٩].
    - ❑ من صفات العرش: أنَّه بهي المنظر، أي: جميل الشكل لطيف. من أين أخذ أهل العلم هذا الوصف؟
- قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ذكر بعض أهل العلم أنَّ العرض يكون أكثر من مرة، والدليل في قوله -سبحانه وتعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]، وجاء في حديث أن العرض ثلاث مرات:

---

[٧] صحيح مسلم (٢٤٠١).
[٨] صحيح مسلم (٢٧٢٦).
[٩] صحيح البخاري (٦٤٢١).

- **الأول:** عرض الجدل. يجادل الإنسان في طلب حقه وحقه محفوظ له.
- **الثاني:** عرض المعاذير، يعتذرون.
- **الثالث:** العرض الأخير، فتتطاير الصحف، فآخذٌ كتابه باليمين -جعلنا الله وإياكم والسامعين والمشاهدين من هؤلاء- وآخذٌ كتابه بالشِّمال -أعاذنا الله.

- قال تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾ نستفيد أن هذه المقامات تزيد العبد في الدنيا خوفًا، وأن الإنسان مهما فعل في الدنيا من المعاصي سواءً بنفسه، أو أضرَّ بالآخرين، ولو اختفى في أعمق مكان، وأظلم مكان، وأبعد مكان، فلا يخفى أمره على الله، وسيحاسب على كل شيء، ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ [غافر: ١٩]، فإذا استشعر وعرف الإنسان أنَّه سيحاسب، وسيُصعق عند النفخ، وسيقوم، وسيحاسب بما فعله إذا كان منهي عن فعله، بما ترك إذا كان مأمور بما تركه؛ فيزداد من الله خوفًا، وله حُبًّا.
- قال تعالى: ﴿**هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ**﴾ فرِح بهذا الكتاب؛ لأنَّه أخذه بيمينه، وهذه علامة الخير، فإذا أخذ الإنسان في الدنيا شهادة أو ظفر بشيءٍ فيه فوز؛ فإنَّه يُطلع عليه أحبته وإخوانه من باب المشاركة لهم حتى يشاركونه في فرحه، ويبشِّرهم بما بُشِّرَ به.
- ﴿**إِنِّي ظَنَنتُ**﴾ الظن هنا بمعنى اليقين، ﴿**إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ**﴾ يعني: أيقنت، سيلاقي ما قدَّم في الدنيا، وما وفَّقه الله تعالى وهداه له من الخيرات فعلًا، ومن المنكرات تركًا واجتنابًا.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.



الدرس السادس

- ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ قال بعض المفسرين: هو الذي يأخذ كتابه بشماله، لكن تُلوى يده الشِّمال خلف ظهره، ثم يأخذ الكتاب بشماله، وهذا إمعانٌ في إذلاله، وإمعانٌ في إهانته.
- الله تعالى لا يَظلم أحدًا؛ لأنَّه أقَام الحجَّة، وبيَّن طريق المحجَّة، بإرسال الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، ورتَّب على الطَّاعات الأجر والثَّواب، ورتَّب على الخطيئات الوزر والعقاب، ومع ذلك كله حلُمَ عليهم وأمهلهم، ولو عجَّل لهم العذاب مَا تَرك عَلها مِن دَابة، ويستر على العاصي، ويقبل توبة التَّائبين، بل مَنْ هَمَّ بحسنة ولم يعملها كُتبت له حسنة، ومَنْ هَمَّ بسيئة وتركها، كُتبت له حسنة، كل هذه فضائل من رحمة الله تعالى.
- الإنسان في حياته يمر بعدَّة عوالم يعيشها:
  - **العالم الأوَّل:** عالم الرحم.
  - **العالم الثَّاني:** عالم اليقظة.
  - **العالم الثَّالث:** عالم النَّوم.
  - **العالم الرَّابع:** عالم البرزخ.
  - **العالم الخامس:** عالم عرصات القيامة.
  - **العالم السادس:** المستقر الأخير، إمَّا إلى جنَّة وإمَّا إلى نار.
- قوله: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ يقول: يا ليت أنَّ موتته في الدُّنيا لم يَعقها لا بعث ولا نشور ولا حساب.
- في قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾، من أسباب عناد الرسل وعناد الحق: الاغترار بأمور، **أشهرها أمران:**
  - **الأمر الأوَّل:** الحُجج والبراهين التي تصادم الحق وترد الحق، من تلبيس الشيطان، وعقليات خارجة عن العقل السليم في ردِّ النُّصوص الشَّرعيَّة.
  - **الأمر الثَّاني:** قوة المال، يعني لما ذكر الله هنا: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ قال بعضهم: السُّلطان: الحجج والبراهين. والمال: الثروات.
- **موازين أكثر النَّاس في التفاضل خمسة:**
  - **الميزان الأوَّل:** في كثرة المال.
  - **الميزان الثَّاني:** في كثرة الأوْلاد.
  - **الميزان الثَّالث:** في الفخر بالأنساب.
  - **الميزان الرَّابع:** الفخر بالعشيرة.
  - **الميزان الخامس:** الفخر بالمنصب.

هذه الموازين إذا لم تُسَخَّر في طاعة الله فإنَّها تكون حجَّة على صاحبها، وقد بيَّن الله بطلان هذه الموازين، وأنَّها لا تنفع إلَّا إذا كان صاحبها قد وطَّأها وسخَّرها وذللها في طاعة الله.

- بقي الميزان الحق، ميزان أدق من ميزان الذهب، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فهذا ميزان بالوصف، مَن كان لله تقيًّا كان له وليًّا.
- قال تعالى: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ يُقاد إلى الجحيم ليصلاها، ويَصِلُ الجحيم مغلولًا، وهذا أشد في إهانته.
- مِن أسباب عذابه ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ قال بعض المفسرين: الآية الأوَّلى عَلاقته بالخالق، والثَّانية عَلاقته بالمخلوقين، وقد فرَّط في الأمرين، فعصا ربه وكابر، وفي المقابل ظلم النَّاس ولم يؤتيهم ما أمر الله تعالى أن يؤتَوا، إمَّا بالظلم أو بسلب الحقوق، أو ما شاكله.
- قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ يُنكر ما لله من الحقوق، يُنكر البعث، يدخل فيه كل من حادَّ الله تعالى، إمَّا بكفر أو بإلحادٍ، أو ما شاكله.
- قال تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ،يقولون: ذكر الله هذا الوصف -المنع وعدم الحض- من باب قبيح وصف من تشبَّه بها.
- إنَّ الشُّح والبخل وصفان ذميمان، ومؤداهما المنع، لكنَّ الشُّح أقبح من البخل، **والفرق بينهما:**
  - البخل: أن يمنع نفسه من إعطاء المساكين والفقراء،
  - الشُّح: فهو منع غيره، يعني شخص تأبى نفسه أن يتصدق مع أنَّه في غِنى وفي خير، بل لا يخرج زكاته مع أنَّها فرض عليه، ويمنع غيره من إخراج الزَّكاة، ومن باب أولى يمنع غيره من التَّصدق.
- قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ هذا فساد المعتقد، وضياع التوحيد، ومعصية الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام- والمحادة لله تعالى، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ هذا مثال من سوء عمله.
- **قوله:** ﴿هَا هُنَا حَمِيمٌ﴾ أي: صديق، أو قريب، أو شفيع، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. والحميمُ وصفٌ للماء الحارِّ المحترق.
- قوله تعالى: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾، هنا خطيئة الاعتقاد، والخطأ الأكبر في الذنوب هو خطأ الكفر بالله، فالمراد بـ﴿الْخَاطِئُونَ﴾، أي: الكافرون، الذين استحقوا هذا العذاب. ووصفهم بالخطأ مِن الخطيئة الكبرى، وهي الشِّرك بالله تعالى والكفر به.
- قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾،

  هنا أقسم الله بما يبصرونه من مخلوقات، وما لا يبصرونه، حتى قال بعضهم: دخل في ذلك أنَّ الله تعالى أقسم بنفسه الكريمة.
- قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾

  يعني: القرآن الكريم بلَّغه الرسول صلى الله عليه وسلم فنُسب إليه، من باب أنَّه قام بتبليغه.
- قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ كريم الصفات، كريم النعوت، أمين على ما أؤتمن عليه.

- قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾أي: هذا الذي جاء به محمد -عليه الصَّلاة والسَّلام- وتلاه عليكم ليس من كلامه، وليس من كلام الشعراء، وليس من كلام الكُّهان، لا مقارنة ولا مقاربة؛ بل هو تنزيل من ربِّ العالمين.
- قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾، قالوا: لو قُدِّرَ أنَّه تقوَّل وافترى، وحاشاه -عليه الصَّلاة والسَّلام- فقد حَمَاهُ الله تعالى وَعَصَمه، أنَّه لو تقوَّل بعض الأقاويل، ما عقوبته وما جزاؤه؟
- قال تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾، قيل: لأخذنا بيمينه، اليد اليمنى أقوى، فإذا أُخِذَ بها فهذا من باب الإضعاف، وقيل المراد: أخذناه أخذًا قويًّا، ويُعبَّر باليمين عن القوَّة.
- قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾، الوتين: عرقٌ متصلٌ بالقلب. وقيل: عرق في الظَّهر، إذا قُطِعَ هذا العرق انتهى أمر صاحبه. ونستفيد منه: أنَّ مَن افترى على الله وتقوَّل على الله، أنَّه على خطر عظيم.
- القول على الله بغير علم. قال بعض أهل العلم: إنَّه أساس كل بليَّة، وإنَّه هو سبب الشرك؛ لأنَّ المُشرك ما وقع في الشرك إلا لأنَّه قال على الله بغير علم، ولهذا قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى: ذكر الله تعالى المنكرات، وختم بأعظمها، كل المنكرات عظيمة، لكن تتفاضل وتتغاير وتتضاعف الشناعة.
- قال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾، لا يستطيع أحدٌ منكم أن يردَّ العذاب عنه البتَّة، مهما بلغ في قوته؛ لأنَّ هذا الأمر من الله تعالى، ولا مَردَّ لما أراد الله، لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما مَنع.
- قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، هذا القرآن تذكرة وذكرى وعظة لمن اتقى، واستقام، واستجاب، وكان لسان حاله ومقاله: سمعنا وأطعنا.
- قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ النَّاس انقسموا في اتِّباع الرُّسل، فمنهم من آمن واتبع وصدق في اتباعه، ومنهم من كذَّب وكابر وعاند، ولا يجني جان إلا على نفسه.
- قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهذا القرآن جاء فيه الوعيد، وجاء فيه التخويف، وجاء فيه أنَّ مَن خالف ما فيه من الأوامر، وتنكَّب ما فيه، وارتكب النواهي، سيكون حسرة عليه.
- قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

عندنا ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾، و﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾، و﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ **ثلاث أشياء:**

- **عِلْمَ الْيَقِينِ:** ما أدرك بالسمع.
- **عَيْنَ الْيَقِينِ:** ما أُدرك بالبصر، والبصر أبلغ من السمع.
- **حَقُّ الْيَقِينِ:** فهو مباشرةُ ذلك، فأخبار الجنَّة علمناها علم اليقين بالقرآن الكريم، ومن العلم هذا أنَّا سنراها رؤية عَيْنَ الْيَقِينِ، يعني هي الآن كأنَّها مَاثلة، ومَن أصدق مِن الله قِيلا.

- قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

نزِّه ربك العظيم، نزِّه الله عمَّا لا يليق، من تنزيه الله: طاعته في ما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، ومن تنزيه الله تعالى عن الظنون السيئة، والظن به الظن الحسن، ومن تنزيه الله تعالى الرضا بما قدَّر، سواءً كان قدريًّا، أو دينيًّا شرعيًّا.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس السابع

- سورة المعارج سورةٌ مكيَّةٌ، بل نصَّ أهلُ التَّفسير على أنَّها مكيَّةٌ باتِّفاقٍ، وآياتها أربع وأربعون آية.
- ومِن أسمائها:
  - سورة المعارج، وهذا هو الاسم الأشهر.
  - سورة سأل سائل.
  - وتسمى سورة الواقع.
- وقد ورد في فضلها حديثٌ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ المَعَارِجِ، أَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ»، وهو حديث لا يصح،
- قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ذكر بعضُ أهل التَّفسير أنَّ سببَ نزولِ هذه السُّورة: أنَّ رجلًا مِن زُعماء قريش -سمَّاه بعض المفسرين النضر بن الحارث- لما سمع الوعيد وأمور البعث؛ تهكَّم بها، ثم دعا على نفسه في ما ذكره الله تعالى في آية سورة الأنفال، وقال: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، قال بعض أهل التَّفسير، فكان نزول هذه السُّورة في الرَّد على هذا الرجل، وقد قبل الله دعاءه على نفسه، فقُتل يوم بدر صبرًا – أي: بالسَّيف.
- قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ الباء هنا بمعنى "عن"، مثل قوله: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، أي: فاسأل عنه خبيرًا.
- قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ يعني: سأل هذا السَّائل عن العذاب، فأنكروا البعث، وأنكروا ما جاء في الآية من الوعيد والنعيم؛ لأنَّ عقولهم ضعفت عن قبول الوحي، وقد بيَّن الله في آيات كثيرة بطلان هذا الزَّعم.
- قال تعالى: ﴿لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾، أي: إذا أراد الله أمرًا تمَّ، قال تعالى: ﴿إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]، لا مَانِع لِما أَعطَى، ولا مُعطي لما مَنَعَ ولا رَادَّ لقضائه.
- قال تعالى: ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾، في المعراج أقوال، منها:
  - قيل: ذو الفواضل والنِّعم.
  - وقيل: مَن تعرج إليه الملائكة والأرواح، وجاءت الآية الأخرى مفسِّرةً ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، وهذا فيه دليل واحد من أدلَّة إثباتِ علوِّ الله تعالى، وعلوُّ اللهِ تعالى ثابتٌ في الفِطَرِ وفي العقول السَّليمة، والنُّصوصُ لا يحصيها ديوانُ كاتبٍ لا بمنطوقها ولا بمفهومها، فكلُّها دالَّة على علوِّ الله تعالى.
- قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ﴾ تقدَّم أنَّ الملائكة عالم غيبي، مخلوقون مِن نور، مكلفون بأعمال، لا يَعصون الله مَا أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وتقدَّم لكم أيضًا الخلل العَقدي في بعض الموسوعات العلميَّة العالميَّة كالموسوعة البريطانية، حيث ذكروا أنَّ الملائكة هم نوازع الخير في الإنسان، كما أنَّ الشَّياطين هم نوازع الشر.

وهذا التَّعريف خلل عقدي، والصَّحيحُ أنَّ نَوازع الخير وثمار الخير مِن آثار الملائكة، فهم يصلُّون ويدعون للمؤمنين، ويدافعون عنهم، أمَّا الشَّياطين فيغونهم.

- قال تعالى: ﴿الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ قيل: إنَّ الرُّوح هو جبريل -عليه الصَّلاة والسَّلام- وذِكْرُه مخصوصًا من عموم الملائكة من باب مَا يُسمى بعطف الخاص على العام، لأهميَّة ذلك الخاص، ومثله في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة:٩٨]، مع أنَّ جبريل وميكال من الملائكة، لماذا أفردهم بالتَّسمية وخصهم بالذكر؟ لعظيم شأنهما، وقيل: لأنَّ الكفار يعادونهما أكثر من غيرهما.
- قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، هذا اليوم قدَّره الله بخمسين ألف سنة، قال بعض أهل العلم: إنَّ هذه المدة الزمنية هي ما بين العرش إلى أسفل سافلين. وقيل: هي اليوم الفاصل بين القيامة وآخر الدنيا، وهي أقوال قيلت ولكن تحتاج كلها إلى دليل؛ لأنَّ الأمور الغيبية لابدَّ فيها من دليل، ولهذا جاء في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]، وهنا قال: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، قال بعضهم: هو كألف سنة، لكن يُثقِّله الله على الكفار فيكون كخمسين ألف سنة.
- قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، جاء في القرآن الكريم وصف "الجميل" لأمور، منها: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وأذكر أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية سُئل عن الصفح الجميل، وعن الصبر الجميل، وعن الهجر الجميل. فقال: **"الصبر الجميل: صبر بلا شكوى"**[١٠]، إذا ابتلي الإنسان من أحد، أو بمرض، فيصبر صبرًا لا شكوى فيه حتى لا يذهب أجره، أو يقل أجره. قال: **"والصفح الجميل: صفح بلا عتاب"**، إذا صفحت عن أحد فلا تعاتبه، يكفي المدة التي هجرته قبل الصفح عنه. قال: **"والهجر الجميل: هجر بلا أذى"**، فيكفيه الهجر تأديبًا له.
- قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾؛ لأنَّ عاقبة الصبر الجميل حميدة.
- قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾.
- الكفار يَرون يَوم البعث بعيدًا، ويؤمِّلون آمالًا، ويستبعدون وقوع ذلك، واحتجُّوا بقولهم: كيف يبعث الله العظام النَّخرة؟
- قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ أي: يرون أنَّ هذا العذاب لن يكون، وأمورُ بعثٍ يُستبعد وقوعها، وأنَّهم لن يعذبون؛ ولكن خلافَ ظنِّهم واعتقادِهم هو قريبٌ، وما ذَهَبَ مِن الدنيا أكثر ممَّا بقي، فالذي بقي في الدنيا الآن أقل ممَّا ذهب، ولهذا قال الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، اقتراب نسبي طبعًا.
- تتغير السُّنَن الكونيَّة عند قيام السَّاعة،قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾، قالوا: المُهل هو الرصاص المذاب. وقالوا: هو كأثر الزَّيت. وقالوا: كماء الفضة إذا ذابت.

---

[١٠] قال ابن القيم في (بدائع الفوائد : ٤ / ١١٢ ، ١١٣): وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية –قدس الله روحه ونور ضريحة– مرارًا يقول: ذَكَرَ الله الصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل؛ فالصبر الجميل الذي لا شكوى معه، والهجر الجميل الذي لا أذى معه، والصفح الجميل الذي لا عتاب معه.

- قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ لا يسأل صديقٌ صديقه، انتهى الأمر، بل لا يسأل الحميمُ حميمَه، ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ [الحج: ٢] هل يُعقل أنَّ الأم وهي ترضع ولدها، وهو يبكي يريد الرضاع، جائع، عطشان، ورحمة الأم بولدها أعظم رحمات البشر، فتخيَّل أنَّ هذه الأم تَذهل ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] ، هذا من علامات الساعة، وما سيكون في يوم القيامة.
- قال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يرون، فالمجرم يعرف أنَّه جنى على نفسه، وأنَّه سيلقى ما قدَّم، وأنَّه رأى أن ما كذب به واقع لا محالة.
- قال تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾، "يومئذٍ" بكسر الميم، وفي قراءة بفتحها"يومَئذٍ"، ولا أدري هل القراءة متواترة أولا؛ الله أعلم.
- قال تعالى: ﴿بِبَنِيهِ﴾، أي: أقرب النَّاس له.
- قال تعالى: ﴿وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ﴾ سُميت الفصيلة فصيلة؛ لأنَّه انفصل عنها.
- قال تعالى: ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾، أي: كل هذه القرابات والعشائر والقبائل والأسر لن تنفعه شيئًا.
- قال تعالى: ﴿وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾، وجاء في سورة لقمان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا»[١١]، يا عباس، يا فلان، يا فلان، ففي ذلك الموقف لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَوْلًى شَيْئًا.
- وهذا دليل على أنَّ الإنسان لابد وأن يجتهد في الدنيا بالعمل الصالح؛ لأنَّ في موقف القيامة لن ينفعك إلا الله -عز وجل- فأنت الآن في الدنيا إذا ألَمَّت بك نازلة، ووعدك أحدُ النَّاسِ مِن مسئولٍ أو قريبٍ، أو جارٍ، أو صديقٍ؛ بمعونة أو بشفاعة ثم انتظرته وتخلف عنك؛ فستشعر بالضيق لأنَّه لم يتحقَّق ما تريد، أو قد يعدُك لكن يعجز، لكن في الآخرة ليس لك أحد إلا الله، فالأم تغفل عن وليدها إذا قامت السَّاعة، والحامل تضع حملها، وكلُّ أحدٍ يفرُّ من صاحبه.
- قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

﴿كَلَّا﴾ أي حقًّا، وتأتي بمعنى لا، ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى﴾، هذا وصفٌ للنار، أي: تتلظى من حرها، وتقدَّم أنَّ كثرة الأسماء للشيء تدلُّ على عظيم شأنه في الغالب، وأعظم الأسماء هي أسماء الله تعالى، وأسماء الرسول -عليه الصَّلاة والسَّلام- وأسماء القرآن الكريم، وأسماء الإسلام، وذُكِر أسماءٌ للجنَّة والنار لعظيم شأنهما.

- قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ قيل: إنَّ الشَّوى: جلدة الرأس، وقيل: أطراف الأصابع. وبغض النظر عن الأقوال الأخرى، لكن معناها: أنَّها تنزع الجلود، وتنزع المفاصل. وهذا الوصف حتى لو لم نعرف معناه؛ إلا أنَّه يدلُّ على شناعة وقوة العذاب.
- قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً﴾، قيل: تنزع جلدة الرأس عن عظامه.

---

[١١] صحيح مسلم (٢٠٥). بلفظ: "يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"

- قال تعالى: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ أدبر عن الخير، وعن الإيمان بالله، وعن تصديق ما سيكون في القيامة، هذا الذي أدبر تولى عن آياتنا وأعرض واستكبر، ولا يجني جان إلا على نفسه.
- قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ هَمُّهُ الدُّنيا، ولم يرَ لِلآخرة أمرًا، فاهتمامه بالدنيا وجمعه لها، وإعراضه عن الآخرة؛ أضرَّ به، حتى يقول بعض النَّاس: أضر به في الدنيا والآخرة، لأنَّه في دنياه لم يهنأ بها، حتى وإن تلذذ بالمطاعم والمشارب، لكن لم يهنأ بنعمة الإيمان، ولا بنعمة القرآن، ولا بنعمة طاعة الله -عز وجل- فألهته دنياه عن آخرته، جمع المال ووعاه ومنع الحق المستحق للفقراء والمساكين، وأخذنا في المجلس السابق قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٤]، فهذا الرجل الذي أدبر عن الحق، وأعرض عنه وكان هَمُّهُ الدُّنيا، جنى على نفسه في الدنيا بحرمانها من العمل الصالح، وجنى على نفسه في الآخرة بأنَّه صَلَى النار، عدلًا من الله تعالى وحكمة.
- قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، هَلوعًا: أي: يَفزع ويخاف، فالهلع طبيعة في بني آدم، ودائمًا في حياتنا تأتي أخبارُ أفراحٍ، وأخبارُ أتراحٍ، تارة تأتي بشارة بالخير، وتارة تأتي بشارة بالشر.
- فهنا قال: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ قيل: إذا مسه الشَّر لم يصبر.
- قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، أي: لم يشكر، فكثير من النَّاس إذا أتته المصيبة ترك الآداب الشَّرعيَّة، كالاسترجاعِ، وسؤالِ الله الثَّباتَ، والعوض، والتَّأدُّب في اللَّفظ والقول، وبعضهم يفعل من أخلاق الجاهلية، كشقِّ الثَّوب، ونتف الشَّعر، واللَّطم، إلى آخره..
- قوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾، دليل على عِظم أثر الصَّلاة على جوارح العبد، وعلى قلبه، وعلى تعامله مع الله، ومع نفسه، ومع النَّاس.
- ما الفرق بين ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؟

قيل: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ أي: خاشعون، فالماء الدائم هو الراكد الساكن، فهم في صلاتهم خاشعون، ويحافظون على أركانها، وواجباتها، وسننها القوليَّة والفعليَّة، ولهذا أيُّها الأكارم ينبغي أن نحرص على أن نتعلَّم وصف الصَّلاة النَّبويَّة، والنَّبي -عليه الصَّلاة والسَّلام- يقول في ما رواه البخاري عن مالك بن الحويرث: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[12]، ويقول -عليه الصَّلاة والسَّلام: «مَنْ تَوَضَّأَ كَمَا أُمِرَ، وَصَلَّى كَمَا أُمِرَ»، لاحظ «كما أُمِرَ»، ليس كما تعوَّد «غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[13].

- قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، أي: في خشوع وسكون واطمئنان.
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾، سمي المال بالمال لماذا؟ لأنَّه يتموَّل.
- قال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.

---

[12] رواه الدارقطني في سننه (٩٢٥) والبيهقي (١١٠١) وابن عبد البر في التمهيد (٦٣٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع

[13] مسند أحمد (٢٢٩٧١)، واللفظ لابن حبان في صحيحه، وحسنه الألباني.

السَّائل المحروم: الفقير. وقال بعضهم في المحروم: نعوذ بالله أنَّ بعض الأغنياء يبخل على نفسه، وعلى أهل بيته، حتى لا يُرى عليه أيُّ أثرِ نعمةٍ من بُخله، فهذا محروم، وكذلك تسبَّب في إعطاء أهل بيته الزَّكاة، فجمعَ إثمَ عدم النَّفقة مع إثمَ صرف الصَّدقة لأولاده، وحرمانه الآخرين، فأهل الصَّدقة والزَّكاة يصرفون أموالهم لأولاده لبخله عليهم، فهو بذلك عطَّل صرف الأموال إلى مَن استحقها من الفقراء.

- ذكر هنا في وصف المصلين: حفاظهم على الصَّلاة، وأداؤهم لحق الأموال كالزكاة، ثم ذكر هنا المعتقد: ﴿يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾، يوم الدِّين: هو يوم الجزاء والحساب، لهذا وصف يومَ الدِّين أنَّه يوم القيامة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨].
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يُصدِّقون أنَّه واقعٌ لا محالة، وأنَّ ما أخبرهم الله تعالى به واقعٌ لا محالة، جاءنا علم اليقين، وسنراه بعين اليقين، وسنباشره بحق اليقين.
- ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، أي: خائفون لعلمهم بحقيقته، وأنَّه واقعٌ لا محالة، والمسلم دائمًا يرجو ويخاف، ولا يأمن مكر الله -عز وجل- لكن إذا علم الله صدق نيته، وطيب طويته، وأدَّى العبد ما أوجب الله عليه؛ فلن يرى من ربه إلا ما يشرح صدره، ويطمئن قلبه، ويقر عينه.
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ لا يأمن مكر الله، هذا عذابٌ واقعٌ لا محالة لمن استحقه، وسيرى النَّاس جميعًا ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، لكن ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: ٧٢]، جعلنا الله وإياكم ممن ينجيهم الله، والسامعين والمشاهدين.
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ جاء في الحديث «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَزِنَا الْعَيْنِ : النَّظَرُ، ...» إلى أن قال: «وَالْفَرْجُ : يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»[١٤]، فحفظ الفرج من أخلاق المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾، وهو الزواج الشرعي، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ مِلك اليمين، حتى قال بعضهم: هذه الآية فيها دليلُ تحريم نكاح المتعة، لأنَّ الله استثنى أمرين: الأزواج، وملك اليمين.
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾. فهذا لا لوم عليهم، بل في ذلك أجر، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته له فيه أجر في هذه؟ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟» قالوا: بلى، قال: «فَكَذَلِكَ»[١٥].
- قال تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾، أي: ظلم نفسه واعتدى عليها، وخرج عن الإطار الشَّرعيِّ الذي أباح الله له أن يمارس فيه ما شاء من المباحات، فتعدى عليها بتجاوزه هذا الحد الشَّرعي.
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.

هذا تابع للأوصاف السَّابقة، والأمانة **تشمل الأمانة الحسّية والمعنويَّة**.

---

[١٤] صحيح البخاري (١١١٧٨).
[١٥] صحيح مسلم (١٠٠٦).

- ❖ **الأمانة الحسيَّة:** كأن يضع رجلٌ عندك مالًا ويقول: سأسافر وسأرجع بعد حين، أو هذه سيارة عندك تحتفظ بها حتى أرجع، أو أعطها فلانًا، أو كذا.. فينبغي أن يرعى هذه الأمانة.
- ❖ **الأمانة المعنويَّة:** كالأمانة على الأولاد، وذلك بتربيتهم تربية صحيحة، عدم تضييع الأمانة.

- قال تعالى: ﴿لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾، يعني: إذا عاهدوا أوفوا، ولهذا بيَّن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنَّ من صفات النِّفاق، «إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ»[١٦]، ولكن المؤمنين يرعون عهودهم حق رعايتها.
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ إذا شَهِدَ عمروًا ثم طُلبت شهادته، فإنَّ من واجب الديانة أن يؤديها، ومَن يكتم الشَّهادة فإنَّه آثم، فيؤديها كما رأى، أو كما سمع، أو كما شهدها بنفسه.
- قوله: ﴿قَائِمُونَ﴾ أي مهتمُّون، ولهذا جاء قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]، أي: إلا ما دمتُ عليه مُهْتَمًّا بذلك، فلان يقوم على هذا العمل، أي: يباشره، ويهتم، ويشرف، ويتابع.
- قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ تقدَّم أنَّ الدَّوام على الصَّلاة: هو الخشوع، وأنَّ المحافظة: هي الإتيان بأركانها وواجباتها وسننها وأقوالها.
- قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

نقف عند هذه الآية، وهذا جزاء المصلِّين، الذين صدَّقوا بيوم الدِّين، وحفظوا فروجهم، وأدُّوا أماناتهم، إلى آخر ما ذكر الله، ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ أحسنوا في الدنيا، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان!

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

---

[١٦] صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٤٣).

الدرس الثامن

- مِن أوصاف أهل الإيمان أنَّهم على صلاتهم يحافظون، وعلى صلاتهم دائمون، وأنَّهم لأماناتهم ولعهدهم راعون،تلك الصِّفات هي صفات النَّاجين، والآن ذكر الله تعالى صفات القوم الآخرين، وهم المعاندون المعارضون المكابرون.
- قال تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾، وجاء في سورة أخرى، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي﴾ [القمر: ٨]، أي: مسرعين، وقيل هنا بمعنى: معرضين.
- قال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾، أي: اجتمعوا على معاداة الحق، ولهذا هناك عبارة للإمام أحمد -رحمه الله تعالى- عن أهل البدع، قال: **"فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على خلاف الكتاب"**[١٧]، فهم بينهم خلاف وتناحر، إلا أنَّهم متَّفقون على معاداة الحق.
- قال تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ هذا عين التَّناقض، هذا مخالفٌ للفطرة، وللعقل السليم، الآن هم كفروا وعاندوا وحاربوا وجاهروا، وخالفوا نهج الرسل، بعد هذا كله، ألا يخشون الله أو يخشون عقوبة الله، هل يطمع أحد من أولئك أن يُدخل جنة نعيم؟ هذا عين الجهل والضلال.
- قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾، يعلمون أصل خلقتهم، وأنَّهم من مَّنِيٍّ يُمْنَى، وأنَّهم نطفة، فلماذا الكِبر، ولماذا العُجب ولماذا التفاخر؟!
- قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ في المزمل والشعراء، أمَّا ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ فجاءت في سورة الرحمن، بينما ﴿الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ هنا في سورة المعارج، لا اختلاف بين الآيات.
- ولهذا يقول: ﴿رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾، يعني: مشارق الكواكب ومغاربها، وقال بعضهم في قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾، يعني: مشرق الشمس والقمر في الصيف، ومغرب الكوكبين في الصيف، وهلم جرا، فهي اسم جنس يشمل كل ما يُشرق وكل ما يَغرب.
- قال تعالى: ﴿أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ قال بعضهم: كما في سورة محمد: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وهذا يظهر أنَّه اختيار ابن جرير -رحمه الله تعال.

وقال آخرون: المراد أن نُبدل أجسادهم بعد ما يخرجون من البعث، بأجسادٍ خيرٍ من أجسادهم التي يعيشون فيها الآن، ولعلَّ قول ابن جرير -رحمه الله- هو الأقرب للصَّواب، والله تعالى أعلم.
- قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: لن يسبقنا أحد، فالله تعالى لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، لا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى، حُكْمُهُ يَنفذ، وَحُكْمُ غَيره لا يَنفذ إلا بإرادته ومشيئته.
- "النفاد" بالدال المهملة، و"النفاذ" بالذال المعجمة، ما الفرق بينهما؟
  - ✓ "النفاذ" بالذال المعجمة المنقوطة يعني: أن حكم الله واقعٌ لا محالة.

---

[١٧] قاله الإمام أحمد في خطبة كتابه في الرد على الجهمية

✓ و"النفاد" بالدال؟ فيعني الانتهاء.

- قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾، يوم لا مفرَّ منه، هذا اليوم كلٌّ سيشهده، وهو يوم الجزاء والحساب، يوم موعود لكلِّ النَّاس، سيقفون هذا اليوم، لكن يختلف وقوف أهل الإيمان، من وقوف أهل الكفر والطغيان.
- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

  يوم القيامة ذلك اليوم الذي يوعدون، سيخرجون فيه من الأجداث.

  ما المراد بالأجداث؟ القبور .

  هناك أسماء أخرى للقبور، الجَدَث، والقبر، وأيضًا الرّمس، والجَدَف.
- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ فإذا نُفخ في الصِّور يَفزع النَّاس، وكما تقدَّم نفخة يصعقون، ونفخة يخرجون.
- قوله: ﴿سِرَاعًا﴾، أي: مسرعين، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]، مهطعين مسرعين.
- قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ﴾، النُّصب: العلامة، وقيل: إلى أصنامهم التي كانوا يقصدونها عندما يحتاجون لها في دفع ضُرٍّ أو جلب نفعٍ، أو إرادة سفر، أو ما شاكله.
- قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ يفزعون ويهرعون قاصدين هذه العلامة التي هي الصَّنم، فإذا قاموا مِن قُبورهم يهرعون مسرعين إلى المكان الموعود.
- قوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ الخشوع هنا من الذُّل.
- **الخشوع أقسام:**
  - ❖ الخشوع المحمود، كالخشوع في الصَّلاة، والإخبات لله تعالى.
  - ❖ خشوع الذُّل، كما في قوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٣]، وفي سورة الغاشية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢]، فهذا خشوع الذل والاعتراف بالمعصية والضلال والعناد.
- قوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، هذا ذل لا عِزَّ بعده، وخَوَر لا قوة بعده، وذلك الموقف -كما يُقال- موقف أخير، مَن فاز فله، ومن خسر فعليه، ولا يظلم ربك أحدًا.
- قوله: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ هنا يتخيَّل الإنسان، أنت تعرف أنَّ الذُّلَّ والإهانة أمام النَّاس أمر ثقيل، فلو أنَّ أحدًا تكلَّم عليك وأهانك أمام النَّاس، ستشعر بحرج وضيق، وخاصَّة إذا كان محقًّا، وهؤلاء مجموعة من النَّاس سينتهي المجلس إذا تفرَّقوا، وسينساها النَّاس بعد حين، فكيف إذا كانت تلك الإهانة أمام جمع كبير من النَّاس؟! فقل لي بربك إذا كانت أمام الملأ أجمعين؟!
- قوله: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، يلقى كلٌّ ما قدَّم.
- نوح -عليه الصَّلاة والسَّلام- هو أوَّل رسولٍ إلى أهلِ الأرض، وهو مِن أولوا العزم الخمسة.

➢ **من يذكر أولوا العزم من الرسل؟**

نوح، موسى، إبراهيم، عيسى، الرَّسول -عليهم الصَّلاة والسَّلام-.

➢ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

تدل الآية على رحمة الله تعالى بالخلق بإرسال الرسل، لإقامة الحجَّة وبيان المحجَّة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء: ١٥]، وهنا قال: ﴿إِلَى قَوْمِهِ﴾، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]، وهذا أيضًا من رحمة الله تعالى.

➢ الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- بُعثوا إلى قومهم خاصة، إلا النبي محمد صلى الله عليه وسلم بُعث للنَّاس عامَّة.

➢ **وهنا فائدتان:**

❑ **الفائدة الأولى:** خصائص الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- دون النَّاس:

❖ **أولًا:** الوحي.

❖ **ثانيًا:** العصمة.

❖ **ثالثًا:** أنَّهم يخيَّرون عند الموت.

❖ **رابعًا:** أنَّهم أحياء في قبورهم يصلون.

❖ **خامسًا:** أنَّهم لا يَتركون ميراثًا.

❑ **الفائدة الثانية:** خصائص النَّبي -عليه الصَّلاة والسَّلام- دون الأنبياء:

❖ **أولًا:** أن بعثته عامَّة للثَّقلين، بخلاف الأنبياء السَّابقين -عليهم الصَّلاة والسَّلام- فدعوتهم خاصَّة لأقوامهم.

❖ **ثانيًا:** أُعطي جوامعَ الكَلِم.

❖ **ثالثًا:** جُعلت له الأرض مسجدًا وطهورًا.

❖ **رابعًا:** نُصر بالرُّعب مسيرةَ شهرٍ.

❖ **خامسًا:** أُحلت له الغنائم.

➢ قوله: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ النِّذارة تكون بالخير ترغيبا، وعن الشَّرِّ ترهيبًا، وهنا ينبغي لَمن أراد دعوة النَّاس للخير أن يُبيّن لهم ما يضرُّهم ليجتنبوه، وما ينفعهم ليسلكوه، فبعض الدُّعاة يُبيّن للنَّاس الخير، لكن ما يُبيّن طرق الضلال والبدع والمحرَّمات؛ فقد يتلوَّث كثير مِن المدعوين بأمور الشُّبهات والشَّهوات لعدم علمهم بالنَّهي عنها، فالصَّواب أن يُبيّن لهم ما يُرغِّبهم في طاعة الله وما أمر الله به، ويُرهبهم عما نُهوا عنه، ولهذا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وفي قراءة: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني: يستبين هو، وأمَّا قراءة: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ لَكُمْ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ذكر ابن القيم أنَّ بعض النَّاس يعرف سبيل المؤمنين، لكن لا يعرف سبيل المجرمين فيقع، وبعضهم يعرف ويتتبَّع أخبار الضَّلال، لكن ما عنده قاعدة عقديَّة ينطلق منها، وبعضهم لا يعرف هذا ولا ذاك، والأكمل في طالب

العلم أن يعرف المنهج السَّليم فيلزمه، ويحثُّ على لزومه، ويعرف طرق الضَّلال المخالفة لمنهج الرَّسول صلى الله عليه وسلم والصَّحابة والسَّلف فيُحَذِّر منها.

- قوله: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من رحمة الله تعالى: بعث الرسل الكرام -عليهم الصَّلاة والسَّلام- لبيان ما يُرغِّب النَّاس في الخير، ويُرهبهم من الشَّرِّ، ويُحذِّرهم من عاقبة المعصية والمخالفة للرُّسل والعناد لهم، وأنَّ هناك عذابٌ أليمٌ لمن خالف وكابر.
- قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، من فقه الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- التَّحبُّب في دعوة قومهم بذكر القرابة، أو العُصبة، أو القبيلة، أو العشيرة، أو الانتماء للبلد.
- قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾، هذا الأسلوب فيه تلطُّف مع المدعوين، ولهذا ذكر بعض المفسرين أنَّ الخليل -عليه الصَّلاة والسَّلام- استعمل أرقَّ عبارات البُنوَّة في مخاطبة الأبُوَّة أربع مراتٍ متتاليةٍ في سورة مريم: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ [مريم: ٤٣]، ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤]، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ﴾ [مريم: ٤٥]، كلها تلطُّف مع أبيه. نوح -عليه الصَّلاة والسَّلام- قبل إبراهيم: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]. النَّبي -عليه الصَّلاة والسَّلام: «يا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ »[١٨]، فدائمًا ذكر القرابة، وذكر العُصبة، وذكر العشيرة، فيه نوع من التَّودُّدِ والتَّآلف، وإظهار التَّرحم والرَّحمة والخوف على المدعو.
- قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، على داعية الخير أن يُبيِّن للنَّاس الحقَّ بجلاء، ولا يُغمض في عباراته، ولا يُسهب إسهابًا يُضيّع المراد في ثنايا كلامه.
- قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ كل الرسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام- دعوتهم واحدة، وهي دعوة التَّوحيد، جاء في الحديث: «الأنْبِياءُ أوْلادُ عَلَّاتٍ ؛ أُمَّهاتُهُمْ شَتَّى»[١٩]، ما المراد بهذا الحديث الصحيح في البخاري؟

قالوا: المعنى أنَّ الأصل واحد، وأمَّا فروع الشَّرائع فمختلفة، لهذا كل الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- جاءوا بحفظ ما يُسمى بالكليات الخمس، أو الضروريات الخمس، وهي: حفظ الدِّين، .... إلخ

- كل الأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- دعوا إلى التَّوحيد، كل نبي يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣].
- حفظ الدين من الكليات الخمس، أو تسمى عند بعض الأصوليين: الضروريات الخمس، وهي:
  - حفظ الدين.
  - حفظ النفس.
  - حفظ العقل.
  - حفظ المال.
  - حفظ العِرض.

---

[١٨] صحيح البخاري (١٣٦٠).

[١٩] صححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٥٢)، وأصله في البخاري بلفظ "الأنْبياءُ إخوة لعَلَّاتٍ ؛ أُمَّهاتُهُمْ شَتَّى"

- نستفيد من هذا: أنَّ يبدأ الدُّعاة في دعوة النَّاس بدعوة التَّوحيد، فبعض الدُّعاة يبدأ بأمور تُشغِل النَّاس عن دعوة التَّوحيد، يبدأ بالأمور السِّياسيَّة، ويخوض في أمورٍ لا تفيد أكثر النَّاس، بل قد يكون بعضهم قواميس في الأمور السِّياسيَّة ويُهمل التَّوحيد، وهذا من الجهل! وبعض النَّاس يُغلِّب جانب الرَّقائق في كلِّ دعوته، ويُهمل التَّوحيد، بعض النَّاس يدخل في غرائب المسائل، ويهمل التَّوحيد، وقد يكون أولئك المدعوين مساكين لا يفقهون شيئًا من التَّوحيد، أو حديثي عهد بالإسلام.
- فينبغي تعظيم جناب التَّوحيد، حتى مع أهل التَّوحيد، من باب ترسيخ التَّوحيد في نفوسهم، ولهذا كان يقول بعض السَّلف: "كانوا يعلموننا ونحن صغار حب أبي بكر وعمر، والرسول صلى الله عليه وسلم" ماذا يقول عن الحسين؟ علمهم: **«اللَّهمَّ اهدِنا فيمَنْ هدَيْتَ»**[20]، وهم صغار، فهذا ترسيخ التَّوحيد، فعلى دعاة النَّاس للخير أن يُعظِّموا التَّوحيد قبل كل شيء، ولهذا الرسول صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذًا لليمن، قال: **«يا معاذ، إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ»**[21] وهذا هو التَّوحيد، الآن في بعض المجتمعات الإسلاميَّة وفي عموم ديار الإسلام؛ النَّاس فيهم خير، حتى مَن هو على بدعٍ وضلالاتٍ من عوام المسلمين لو رُزِقوا بأشخاص أو بدعاة يعلمونهم التَّوحيد النَّقي الصَّافي؛ الفِطَرُ تتقبَّل وتستنير، لكن إذا أهمل مَن يدعوهم أمورَ التَّوحيد، والأحكام الشَّرعيَّة، وأشغلهم في أمور لا تنفعهم بل قد تضرهم؛ فهذه مصيبة.
- ﴿**أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ**﴾ عبادة الله لابدَّ لها من شرط. ما هو؟ في الآية مذكور، تأملوها.
- الطاعة والانقياد لله والطاعة للرَّسول، لا يُعبد الله إلا بما شَرعَه، ولهذا تقوى الله لابد أن تكون على علم، والعبادة على علم، مَن اتقى الله على غير علم يضل، ولهذا هناك -في ما ذكر أهل العلم- عُبَّاد على ضلال؛ لأنَّهم عبدوا الله على غير علم.
- قسَّم أهل العلم الزهد إلى قسمين: زهد شرعي، وزهد بدعي،وإن شئت فقل: عبادة شرعيَّة، وعبادة بدعيَّة.
- نستفيد من قوله: ﴿**وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ**﴾، أنَّ مَن أراد النجاة لابدَّ أن يعبد الله على وفق سنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، على فهم السَّلف الصَّالح -عليهم رحمة الله- من الصَّحابة والتَّابعين، ومَن بعدهم بإحسان، أما مجرد أن يقول: أنا أتعبَّد الله، وأنا كذا وأنا كذا، يقال له: لابدَّ أن تكون العبادة هذه على علم، فالشَّرع لا ينظر إلى الكثرة، إلا أن تكون منضبطة بالشَّرع، ولهذا بعض الصَّحابة رضي الله عنهم لمَّا وقعوا في الاجتهاد في العبادة، وجانب بعضهم الصَّوابَ، ردَّهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم أحرص النَّاس على الخير.
- ﴿**يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ غُفران الذنوب واضح، ﴿**وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾، قال بعضهم: ﴿**وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ بلا عقوبات وبلا عذاب إذا أطعتم الله تعالى.

---

[20] صححه الألباني في إرواء الغليل (٤٢٩).

[21] رواه أحمد (١٩٩٥) وأبو داود (١٥٨٤)، والنسائي (١٣١٢٤)، والترمذي (٦٢٥)، بسندٍ صحيح.

- قوله: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إذا وقع المحتوم، أو جاء الأجل لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون.
- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾.

نوحٌ -عليه الصَّلاة والسَّلام- وكلُّ الرُّسلِ اجتهدوا في دعوةِ قومِهم، فنوحٌ دعا قومَه ليلًا ونهارًا، ومع استمراره المستديم في دعوتهم، ما زادهم ذلك إلا فَرارًا، وما يئس ولا ترك دعوتهم؛ بل استمر.

- من دعا النَّاس في الخير تحمَّل، وليست العبرة مرهونة بالنَّتائج، أنت مأمور أن تدعو ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [النازعات: ٤٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ولا تنظر لكثرة الحاضرين، «يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[٢٢]، نبي مدعوم بالوحي الإلهي، أرسله الله واصطفاه وأوحى إليه، وهو أخلص النَّاس لله تعالى، ومع ذلك لم يستجِب له أحد، لكن أدَّى ما عليه، فلا يحصل لك إحباط إذا لم يحضر، نصحتَ أو تكلمتَ فقام النَّاس عنك، هذا بشرط أن تتكلم بعلم، ليس مجرد أي كلام؛ لأنَّ المحمود مَن تكلم بعلم، وبلَّغ العلم ببصيرة، فإن استجاب النَّاس فله الجزاء، وإن أعرضوا فعليهم الحساب، لكن مَن تكلَّم بأمور وليس له فيها منهج شرعي وقام النَّاس عنه؛ فهنا القيام وترك من يدعو إلى ضلالة قد يكون واجبًا.
- قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾.

جمعوا بين الإعراض القولي، والإعراض الفعلي، فاستكبروا وجعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعون، وَاسْتَغْشَوا ثيَابَهُم حتى لا يرونه، تخيل أنَّ أحد النَّاس قام يتكلم؛ فوضع السَّامعون أصابعهم في آذانهم، وغطُّوا وجوههم، وفروا قاموا، يعني جميع أنواع الإعراض، ومع ذلك نوح -عليه السَّلام- ما قنط ولا يئس؛ بل لم توقَّف ومازال معهم، فنستفيد من ها أنَّ الإنسان إذا دعا -بشرط أن تكون دعوته على علم وعلى بصيرة- فأعرض مَن يخاطبهم؛ فلا تثريب عليه، إنَّما التَّثريب والثُّبور عليهم ولهم.

- ثم لاحظ! دعاهم ليغفر الله لهم، يعني نوح -عليه الصَّلاة والسَّلام- مع رقته لقومه ورحمته بهم، وخطابه لربِّه أن يغفر لهم؛ فعلوا ما فعلوا من العناد القوليِّ والفعليِّ.
- نذكر ماذا فعله نوح مع قومه، وكيف أن قومه كابروا، فقد دعاهم ليلًا ونهارًا؛ فازدادوا فرارا، ودعاهم جهارا؛ فجعلوا أصابعهم في آذانهم. وأعلن لهم؛ فاسْتَغشَوا ثيابَهُم، وأسرَّ لهم إسرارًا؛ فأصروُّا على عنادهم، ورغَّبهم في الاستغفار؛ فاستكبروا استكبارًا، وذكَّرهم بآثار الاستغفار كالمطر والمال والبنون والجنات والأنهار؛ فمكروا مَكرًا كُبَّارًا، وسألهم بتلطُّفٍ عن إنكارهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ إلى آخره؛ فلزموا طريق الضَّلال لهم ولقومهم، وقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

---

[٢٢] صحيح البخاري (٥٣٣٨).

الدرس التاسع

- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾.

هذه مِن رَحمة نوح بقومه، ومِن فِقه الأنبياء في دعوة قَومهم أنَّهم يَسلكون شتى السُّبل في سبيل إصلاحهم، فنوحٌ عَانَى مِن قَومه مُعاناة شَديدة، كما عَانَى أولوا العزم مِن الرسل، وَسَلَكَ مَعهم -كما ذكر الله تعالى- في دعوتهم طرقًا، فدعاهم ليلًا ونهارًا، يعني: لا يسمعه أحد، ولم يجاهر بذلك، بل كان كما في بعض التفاسير يأتيهم ويخاطبهم بينه وبينهم، ويتلطف معهم على طول المدة التي قضاها معهم، وهذه طريقة مِن طُرق دعوته -عليه الصلاة والسلام- لقومه، وأخبر أيضًا أنَّ دعوته لهم بهذه الطريقة وهذا التلطف لم تزدهم إلا فرارًا.

- صاحب الخير لا ييأس ولا يقنط، بل عليه الاستمرار، أمَّا إذا عَانَدَ المدعو، واستكبر وأصر، فلا يضر إلا نفسه، والعبرة ليست بالاستجابة، وإنما العبرة أن يستفرغ الداعي وُسعه في دعوة الناس للخير، فإن استجابوا فله ولهم، وإن أعرضوا فله وعليهم.

- لا تربط النتائج بنجاح النصح، وقد جاء في الحديث الصحيح الذي يعرفه الجميع: «يأتي النبي ومعه الرهط ومعه الرهيط»، إلى أن قال: «ومعه الرجلان، ومعه الرجل، ويأتي النبي وليس معه أحد»[٢٣]، وأذكر كلمة قرأتها في تاريخ الألوسي "المسك الأظفر"، يقول: "ما ضرَّ النبي قلَّة أتباعه، وما قلَّ العالم قلَّة تلاميذه".

- ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾.

يعني: كلما دعاهم نُوح ليغفر لهم، أعرضوا قولًا وفعلًا، أي: بالكلام البذيء والسخرية، كما قال الله تعالى عن نوح -عليه السلام: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ [هود: ٣٨]، وعاندوا بالفعل: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ حتى لا يسمعوا دعوة الخير ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾، وهنا يتبين صبر الأنبياء العظيم -عليهم الصلاة والسلام، وحلم الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام، ورأفة الأنبياء ورحمتهم بقومهم، فما فعله الناس بأنبيائهم من الإعراض والاستكبار، ما جعلهم يصدونهم عن دعوتهم، وما قنَّطهم، ولا ثبَّطهم، بل استمروا.

- ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

لاحظ، دعاهم ليلًا ونهارًا، أي: في السر بينه وبينهم، ثم ترقَّى إلى ما هو أشد، فدعاهم جهارًا، أي: في وضح النهار، وأظهر قوله ليسمعه القاصي والداني، وليسمعه البعيد والقريب، ثم لما أصرُّوا أيضًا ترقَّى إلى الجمع بين السر والجهر، كل هذا محاولات منه -عليه الصلاة والسلام.

---

[٢٣] أخرج البخاري ومسلم عن ابْنُ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، قَالَ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقُلْتُ: هَذِهِ أُمَّتِي؟ فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، قَالَ: فَنَظَرْتُ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، ثُمَّ قِيلَ: انْظُرْ إِلَى هَذَا الْجَانِبِ الآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلا عَذَابٍ"، ثُمَّ نَهَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ، فَخَاضَ الْقَوْمُ فِي ذَلِكَ، فَقَالُوا: مَنْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلا عَذَابٍ؟، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا قَطُّ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ إِلَيْهِمِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "أهذا الَّذِي كُنْتُمْ تَخُوضُونَ فِيهِ؟"، فَأَخْبَرُوهُ بِمَقَالَتِهِمْ، فَقَالَ: "هُمُ الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ، وَلا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الأَسَدِيُّ، فَقَالَ: أَنَا مِنْهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟، فَقَالَ: "أَنْتَ مِنْهُمْ"، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: أَنَا مِنْهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ"

- وهنا لفتة لطيفة، يقولون: ﴿ثُمَّ﴾ تفيد المُباعدة في الأحوال، يعني: كأنه قضى معهم فترة يحاول بالسر، في الليل والنهار، ومع عنادهم ترقَّى إلى مرحلة أشد، وبدأ المجاهرة بدعوتهم، وأمضى معهم فترة.

أي أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ تفيد التباعد، فلما أيضًا أصرُّوا في مرحلة الجهر، جمع بين المرحلتين السابقة واللاحقة، وحاول معهم، ومع ذلك عاندوا وكابروا وما آمن معه إلا قليل.

- يجب على كل مَن أَرادَ أن يدعو الناس للخير أن يَسلك كل سبيل في ذلك إذا كان السبيل صوابًا، يعني طرق الدعوة لابد أن تكون على عِلم وبصيرة.
- فعلى الداعي أن يسلك مع من يدعوه، أو مع من ينصحه كل وسيلة تكون على علم، وعلى بصيرة، وليس فيها محذور شرعي.
- وتنوع الأساليب قد يفيد في تغيير مواقف الناس، فبعض الناس قد يكون التلطف معه لا يفيد، لكنَّ الشدة بحزم وعلم قد تُفيد معه، ولاحظ هذا في أولادك، أو في الصغار.
- ومن هنا تتبين حكمة الداعي، ولهذا كان الحكيم من يضع الأمور في مواضعها، وأمَّا من يزعم أنَّ الحزم أو الشدة فيها عنف فليس بصحيح، ولهذا نجد في تبويبات شمائل الترمذي: باب في مزاحه صلى الله عليه وسلم"، "باب في غضبه صلى الله عليه وسلم"، وهكذا، فكان صلى الله عليع وسلم يغضب وقت الغضب، يحلم وقت الحلم، أمَّ إذا وضع الأمر في غير موضعه، فستصبح النتيجة سلبية.
- ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾.

نوح -عليه السلام- كسائر أنبياء الله، أدوا الرسالة، وبلغوا الأمانة، ونصحوا أممهم حق النصح، وجاهدوا في الله حق جهاده، ونوح عليه السلام نَوَّعَ في أساليب دعوتهم، فدعاهم سرًّا وجهرًا، ثم جمع بين ذلك لمَّا عاندوا، ثم رغبهم أو دَلَّهم على الاستغفار، وأنَّ الله تعالى غفار لمن استغفره، وتواب على من يتوب إليه توبة نصوحًا، ثم أخبرهم بما يترتب على استغفارهم وتوبتهم إلى عند الله من الخير في دنياهم، وذكر من هذه الأمور ثلاثة، منها:

- ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.
- ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾.
- ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾.

- ونستفيد من هذا أنَّ الإنسان إذا دَعا النَّاس إلى خير، رغَّبهم في ما يترتب على هذا الخير، أو على هذه الطاعة، من الخير في الدنيا والآخرة.
- وهناك أثر مشهور يذكره أصحاب التفاسير: أنَّ رجلًا جاء إلى عُمر بن الخطاب رضي الله عنه فاشتكى القحط، فقال له عمر: استغفر الله، أو الزم الاستغفار، فجاء آخر يشكو الفاقة، أي: قلة ذات اليد، فقال: استغفر الله، وجاء ثالث يشكو الذرية، أي: ما عنده ولد، فقال له عمر: استغفر الله.

- فَتَعَجب مَن حَوله، وقالوا: ثلاثة يشتكون بأمور مختلفة، وتأمرهم بشيءٍ واحدٍ، فذكر هذه الآية التي ذكرها نوح لقومه -عليه الصلاة والسلام.
- ونستفيد مِن هذه الآيات عِظم شأن الاستغفار، وأنَّ مَنزلته عَظيمة، وأنَّه مفتاح لأبواب الخير كلها، شريطة أن يكون على علم وبصيرة، أمَّا مجرد استغفار باللسان، يقول: أستغفر الله، أطلب المغفرة من الله، فلا.
- جاء في فضل الاستغفار آيات وأحاديث كثيرة، ومما يحضرني في هذا: قوله -صلى الله عليه وسلم: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»[٢٤]، وفي لفظ: « طُوبَى لِمَنْ وُجِدَ فِي صَحِيفَتِهِ استغفارٌ كثيرٌ»[٢٥].
- مِن فقه الداعية أو مِن فقه مَن يَدعو النَّاس إلى الخير: أن يُرغِّب الناس في ثواب العمل الصالح، لأنَّ النفوس إذا ذُكر لها الثواب والخير في الدنيا والآخرة، تزداد نشاطًا بطبيعتها، فيذكر الداعية من يدعوهم بالأوامر والتكاليف الشرعية، أمرًا أو نهيًا، مع ترغيبهم، أو ببيان مآل الطائعين، وما ينالونه من الخير في الدنيا، والبرزخ والآخرة، ليكون ذلك أكثر شحذًا لهممهم، وأكثر تقوية لعزائمهم.
- ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾.

يَسألهم مُستفهمًا -عليه السلام: ما لكم يا قوم لا ترجون لله وَقَارًا، عظمةً وهيبةً وتعظيمًا. مالكم، لماذا؟ يعني لا تطلبون، أو تخافون عظمة الله وقوة الله، مع ضعفكم وقوته، ومع ذلك لا ترجون لله وقارًا.

ثم بيَّن أصلهم، أو بيَّن ما يزيدهم توقيرًا لله تعالى إن هم استجابوا: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، يعني: من نطفة، علقة، مضغة، إلى أن سوَّاه إنسانًا.

- فذكر مآل الإنسان، وَذِكْرُ أصل الإنسان يَزيد الإنسان ضَعفًا، ويزيد المتكبر ذُلًّا، ولهذا ذكرت لكم -في المجلس السابق، أو الذي قبله- أني قرأت في بعض كتب الأدب، أو كتب الوعظ: أنَّ أحد المتجبرين دخل سوقًا فقام له الناس، إلا واحدًا ما قام، فقال: لِمَ لَمْ تقم؟ ألم تعرفني؟ قال: لا أعرف اسمك، هو ما يعرفه، ولا يضرك أني لا أعرف اسمك، لكن أعرف أنَّ أَوَّلك نُطفة مذرة، وآخرك جِيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة. فتفكير الإنسان بأصله -لمن كان له قلب- يزيد الإنسان تواضعًا وتذللًا، فأنت أيها الإنسان كنت نطفة، وفي الأخير ستكون جثة هامدة.
- ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

تذكير الناس بالآيات الكونية العظيمة، وربطهم بالتوحيد يؤثر فيهم بلا شك، وهذا منهج نبوي.

- ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ خَلَقَ آدمُ مِن تُراب، من الأرض، فذكَّرهم بأصلهم، بمبتدئهم، ثم ذكرهم بمنتهاهم ومآلهم، فهو أنبتكم من الأرض، كما قال هنا: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ في الآية كم مرحلة؟ ثلاثة.

---

[٢٤] أخرجه ابْنُ مَاجَهْ والنَّسَائِيُّ فِي: "عَمَلِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ.

[٢٥] صحيح الترغيب عن عبدالله بن بسر المازني.

ذكَّرهم بأصلهم، وأنَّ الله تعالى أَوجدهم مِن عَدم، ثم ذكَّرهم بمآلهم بعد حياتهم، أنكم راجعون إلى الأرض التي خُلقتم منها، أي: القبر، ثم ذكَّرهم بالثالثة، الإخراج، وهذه الطريقة كما يُقال: فيها ردٌّ على المنكرين للبعث.

المُنكرين للبعث احتجوا بدليل عقلي، وقالوا: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، رأوا العظام نخرة، قالوا: كيف لهذه العظام النخرة، والتي تَلفت مَع تَقادم الزمن تبعث مرة أخرى؟

- فأتى بدليل عقلي: ذكر بعض المفسرين أنَّ مِن نهج القرآن الرد على الحجج العقلية بحجج عقلية، فقال في الآية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: ٣٩]، ترى الأرض مُغبرَّة، ثم إذا جاء المطر أنبتت، وأخرجت ما فيها من الخيرات، من الزرع، مختلفًا أكله، فالذي أَحيى الأرض بعد مَوتها، قادرٌ على أن يُحيي الإنسان بعد موته، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].
- نستفيد أن توظيف التأمُّل في الآيات الكونية، وربط ذلك بتوحيد الله تعالى، وتعظيم شأن التوحيد في نفوس المدعوين، يؤثر تأثيرًا عظيمًا.
- وللأسف هناك قصور في كثير من الدعوات الإصلاحية، وعند مَن يدعو النَّاس في جناب التوحيد، حيث إنَّ أغلب دعواتهم وعظية من الرقائق، وهذا خير، لكن تعظيم جناب التوحيد يجعل الإنسان يتقبل ويزداد لله محبة مع حسن ظن، كما يزاد منه خوفًا، وله توقيرًا وتعظيمًا، إلى آخره.
- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾.

وهذا من رحمة الله تعالى، جعل لكم الأرض مهادًا، وهنا ﴿بِسَاطًا﴾، لو كانت الأرض كلُّها جبالًا، هل يعيش النَّاس عليها؟ لا يعيشون، تتعطل معايشهم، لكن من رحمة الله -جل وعلا- أنه جعلها منبسطة، وجعل فيها جبالا، لكن أكثر الأرض منبسطة؛ ليحيى الناس عليها، بدوابهم وبيوتهم إلى آخره.

- ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ السلوك في الطريق المستوية المنبسطة أسهل من الجبال التي تجبر الإنسان على لزوم طريق معين.
- ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾.

مع كل ما بذل نوح -عليه السلام، يعني اجتمع طول زمنه، وتنوع في أساليب الدعوة، والترغيب والترهيب، وتعظيم شأن الله، والدلالة على الآيات الكونية وأثرها، وعظم خالقها، ومع هذا كله عصوا.

ولو أنهم عصوا واستحيوا، لكان ذلك شرًا، لكنَّ الشر يتفاوت، لاحظ ماذا قال: ﴿عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا﴾ لاحظ .. تركوا اتباع نبيهم -عليه الصلاة والسلام، واتباع ضُلَّال أقوامهم، فالذين اتبعوهم هم ضُلَّال، أضلوا أنفسهم، وأضلوا غيرهم، ولم يقف عنادهم عند هذا الحد، بل ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ من باب التعظيم، أنَّ مكرهم كبير وشديد وعظيم.

- لاحظ أنَّ نوحًا بذل معهم غاية النَّصح، وغاية الترغيب، وغاية الترهيب، وكل الأنبياء هكذا، ومع ذلك قابلوا ذلك كله بغاية العِناد، وغاية الاستكبار، ومع هذا كله فالأنبياء لا يقنطون، ولا يتركون دعوة قومهم، وما فعله نوح عليه السلام أنَّه أخبر ربه، وربه أعلم بحاله.
- ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾.

هذا من غيِّهم، ومن شدة غيِّهم أنهم أوصوا قومهم أن يلزموا تلك الأصنام، وأنها هي الآلهة، وحذَّروا قومهم، ونهوهم ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾.

عندما يقرأ الإنسان هذه الآيات يقول:

- مَا أصبر الأنبياء!
- ما أجلد الأنبياء!
- ما أعظم احتساب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام!

- فينبغي للإنسان أن يُوطِّن نفسه، وأن يسأل الله تعالى العون والسداد، ولا يفتر ولا يقنط، بل يفعل الأسباب الشرعية بعلم وبصيرة، وتبرأ ذمته، ومن أطاعه فهو مأجور، ومن عصا أمر الله فهو مأزور.
- ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هنا أُحبُّ أن أذكر لكم بعض المسائل:

هؤلاء رجال صالحون -رحمهم الله- وكانوا أهل توحيد، رجال صالحون من قوم نوح، وقيل: كانوا قبل نوح -عليه السلام، وكان قومهم يعظِّمون شأنهم في حياتهم فلمَّا ماتوا وتقادم الزمن على أقوامهم، قالوا: نخشى أن ننساهم، فسوَّل الشَّيطان لهم أن يصوّروا صورهم، مِن باب أن يتذكروهم.

لاحظ كيف كان التساهل بالأمور العقدية والتهاون فيها.

فصوَّروا صورهم على أصنام، فذهب من صوَّرهم ومن بعدهم، وتقادم الزمن، ونُسخ العلم، وذهب مَن كان يعرفهم، فجاء أقوام من بعدهم، ماذا فعلوا؟

عبدوهم من دون الله تعالى، ولهذا بعض الناس يخطئ فيشتم هؤلاء، وفي الحقيقة هذه أسماء رجال صالحين -عليهم رحمة الله، والذنب ذنب مَن صوَّرهم وغرَّ النَّاس بهذه التماثيل.

- التهاون دائمًا بأبواب المحدثات والبدع يفتح للناس أبوابًا كثيرة من الشر، ولهذا قال البربهاري -رحمه الله تعالى: "واحذر صغار المحدثات من الأمور، فإنَّ صغار البدع تعود حتى تصير كبارًا "، والنفوس إذا لُبِّسَ عليها تصدق.
- ذكر أن هؤلاء أضلوا كثيرًا، ثم قال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾، دعاءٌ عليهم، لمَّا عَرف مِن مَآلهم وحالهم أنهم سيزدادون غيًّا، وأنه -عليه السلام- أوحي إليه ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦]، ومن آمن؟ ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وما ضرَّه قلَّة العدد.
- هنا يقول: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ بسببِ خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ جمع بين أمرين: بين الإغراق والنار، يقول الضحاك: إنهم لما جاء الطوفان كانوا يغرقون من جهة، ويدخلون نارًا من جهة أخرى، وهذا

القول والله أعلم ليس بصواب، بل القول الصواب هو قول مقاتل: إنهم في الدنيا عوقبوا بالغرق، وبعد موتهم بالنار.

- ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾، ﴿لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، لا يغني والد عن ولده، ولا مولود عن والده، تَذهل المرضعة عن ما أرضعته، وتذهل الأم عن صغيرها، لم؟ ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١].
- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ عَلِمَ بوحي الله أنَّه لن يؤمن أحدٌ منهم.
- ﴿دَيَّارًا﴾ إمَّا من الدار، في دورهم، أو مما يدور في الأرض، فالمهم لا يبقى منهم أحد.
- ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، لو قال لكم قائل: ما الجمع بين هذه الآية، وبين حديث عمر: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ[٢٦]»؟
- هنا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، والحديث: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ».
- قال بعض أهل التفسير: إنَّ نوحًا -عليه السلام- علم بوحي الله له، لما قال الله له: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] عَلِمَ. وهناك تفسير آخر: قال: علم أنَّ هؤلاء الأبناء آباؤهم معاندون، وأنهم مصرون على عنادهم، وسينشئون أولادهم على ما هم عليه، فيحذو الأبناء حذو الآباء.
- ﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ من هذا الذي يدعو؟

نوح -عليه السلام، وهناك عقيدة ضالة يستغني أصحابها عن الدعاء، ويقولون: لا يدعو إلا من كان في إيمانه نقص، وهذا -نعوذ بالله- ضلال مبين، وطعن في مقام الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام، وهم أكثر النَّاس دعاءً مع كرامة منزلتهم، ورفيع مرتبتهم وشريف مقامهم.

- ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وهنا ملحظ من نوح -عليه السلام- بِرُّ الأنبياء هو الأعظم لأبائهم.
- **من أعظم الناس برًّا بوالديهم؟**

الجواب: الأنبياء أعظم الناس برًّا بوالديهم، سواءً كانوا على دينهم أو كفارًا، ولهذا قال نوح -عليه السلام- هنا: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾، وإبراهيم الخليل -عليه السلام- كان بارًّا بوالده: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٢ - ٤٥]، أربع نداءات تدل على رقَّة البنوة في مخاطبة الأبوة. ويحيى -عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [مريم: ١٤]، وعيسى -عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢]، لماذا قال يحيى -عليه السلام: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ وعيسى -عليه السلام- قال: ﴿بِوَالِدَتِي﴾؟

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

---

[٢٦] أخرجه مسلم (٢٦٥٨)

الدرس العاشر

- **تفسير سورة الجن.**
  - **أولاً:** هذه السورة مَكية، بل ذَكَرَ بَعضهم أنَّها مَكية بالاتفاق.
  - **ثانيًا:** ذَكَرَ كثير من المفسرين أنَّ لها اسمين: الأول: "قل أوحي"، والثاني: "الجن".
  - **ثالثًا:** آياتها ثمانٌ وعشرون آية، وقيل: سبعٌ وعشرون آية، يبدو أنَّه دَمَجَ من خلال رواة القراء آية شبك آيتين، أو جعل آيتين آية واحدة، وهذا له نظائر في بعض السور.
  - **رابعاً:** فضائلها: لم يرد في فضلها حديث صحيح، ولكن ورد حديثًا باطلاً، ونقوله من أجل أن يُعرف فيحذر، وهو: "مَنْ قَرَأَ سورة الجن، أعطاه الله عدد من صدَّق أو كفر بمحمدٍ عتق رقبة"، وهذا حديث ليس له زمامٌ ولا خطام.
- هذه السورة الكريمة عن قصة الجنّ مَعَ النَّبي -صلى الله عليه وسلم.
- وذكر بعضُ أهل العِلم أنَّ العُقَلاء مِنَ الخلق ثلاثة: الإنس، والجن، والملائكة، وللفائدة العلمية قالوا: أولهم خَلْقًا الملائكة، ثم الجن، ثم الإنس، الإنس هم الأخير، واستدلوا على ذلك بآية سورة الحجر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧]، ولمَّا خَلَقَ الله آدَمَ أَمَرَ الملائكة أن يَسجدوا له، وعلى هذا فذكر بعضهم أن خلق الملائكة كان أولا، ثم الجن، ثم الإنس.
- وسمي الجن بالجن؛ لاجتنانهم وخَفَائِهم، ولهذا سُمي الجنين بالجنين؛ لاختفائه في بطن أمه، وتُسمَّى الحديقة جَنَّة أو جُنينة؛ لأن أشجارها الظاهرة تَسْتر أَشْجَارها الباطنة أو الداخلة في جوفها.
- الجن خلق من خلق الله، مكلَّفون، لهم صفات متنوعة، كما قال الرسول -صلى الله عليه وسلم: «الْجِنُّ عَلَى ثَلاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ فِي الْهَوَاءِ، وَصِنْفٌ حَيَّاتٌ وَكِلابٌ، وَصِنْفٌ يَحِلُّونَ وَيَظْعَنُونَ»[٢٧].
- ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

﴿قُلْ﴾ أي: قُلْ يَا محمد -صلى الله عليه وسلم.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أُوحِيَ إِلَيَّ فيها فائدة نحوية قرأتها، وهي: أنَّ كثيرًا مِنَ النُّحاة المتأخرين يقولون: هذا مبني للمجهول، بينما قرأت أنَّ المُتقدمين يَقولون: هذا مبني لما لَمْ يُسمَّ فاعله، تأدُّبًا مع الله -عز وجل.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ قل يا محمد، أخبرهم بأنه قد أُوحِيَ إليك.

---

[٢٧] صحيح الجامع برقم (٣١١٤) عن أبي ثعلبة الخشني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الجِنُّ ثلاثةُ أصنافٍ؛ فصنفٌ لهم أجنحةٌ يطيرون بها في الهواءِ، وصِنفٌ حيَّاتٌ و كلابٌ، وصِنفٌ يحِلُّون ويظْعَنون".

- ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، ذهب بعضُ أهل اللغة إلى أنَّه لا فرق بين لفظي: "سَمِعَ و اسْتَمَعَ" بينما ذهب آخرون إلى وجود فرق بينهما فقالوا: سمع مجرد، وبعضهم يقول: استمع زيادة مبنى وفيها زيادة معنى، فهو: استَمَعَ وَوَعَى مَا سَمِع.

ولهذا قال بعض الفقهاء: هل إذا قرأ القارئ سجدة في غير صلاة، فهل يسجد من يَسْمَعه؟

قالوا: أمَّا المُستمع فيسجد أفضل، وأمَّا السَّامع فهو بالخيار؛ لأنَّ المُسْتَمِع هو مَنْ جَلَسَ بقصد الاستماع، أمَّا السَّامع فلم يكن قاصدًا الاستماع.

- ﴿نَفَرٌ مِّنَ الْجِنّ﴾ وضعت العرب مصطلحات لحصر عدد أو أعداد معينة، فقالوا: النفر هو ما دون العشرة، وبعضهم قال: حده ما دون الأربعين.

والبضع مِن الثلاث إلى التسع، بينما النيف: فهو من الواحد إلى الثلاثة.

- ﴿نَفَرٌ مِّنَ الْجِنّ﴾ كم عددهم؟ الله أعلم، المهم أنهم مجموعة، ولا يَضر أن يُعرف العدد.
- ﴿نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ أي: استمعوا وفهموا، وقوله: ﴿سَمِعْنَا﴾ على من قال بمعنى واحد، وقد يقال هنا: إنهم ذكروا الاستماع والوعي، ولا مَانع مِن التعبير بالسمع.
- ﴿سَمِعْنَا قُرْآنًا﴾ القرآن هو كل شيء مقروء فهو قرآن، ولهذا جاء في الحديث: **«لقد خُفّ عَلَى دَاوُدَ القرآن»**[٢٨] الزبور فهو يُقرأ.
- ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ كلام مَا سَمِعُوه مِن قبل، سمعوا الشُّعراء، وقول الكهان، لكن هذا الذي سَمِعُوه تَعَجبوا مِن فَصَاحته، ومِن بلاغته، ومِن نَظْمِه.
- ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ أشار بعض المفسرين إلى أنَّ هذا فيه تَبكيت لكفار قريش، سمعوا القرآن مرات وكرات، ومع ذلك ماَ تأثروا، ولا استجابوا، وهؤلاء سمعوه لأول مرة، فكانوا أَعْقَلَ ممن سمعوه مرات ولم يستفيدوا ولم يتعظوا.
- ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ عَجيب في نَظمه ولَفظه ومَعَانيه.
- ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ الرُّشد جاء ذكره في القرآن الكريم في مواضع كثيرة،والرُّشد هو ما فيه صلاح الأمر في الدين والدنيا، وفيه السعادة، والطمأنينة، وفيه مَرضات الله تعالى، أي: هو الحياة الطيبة.
- ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ هذا القرآن يَهدي إلى الرُّشد، يهدي للتي هي أقوم، فالقرآن يَهدي إلى كل الخير، إمَّا نصًّا، وإمَّا تضمُّنًا، وإمَّا التزامًا، فكل القرآن الكريم يدل على الخير، الخير الحسي والمعنوي، خير الدين، وخير البرزخ، وخير الآخرة.
- ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ سُرعة الاستجابة، سمعوا، وتعجبوا، وعلموا أنَّه يدل إلى الرُّشد، وهذا من توفيق الله لهم، هداية إلهام وتوفيق من رب العالمين.

---

[٢٨] البخاري (٤٧١٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ فَتُسْرَجُ فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ.

➢ ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ﴾ لاحظ، مِن لوازم الإيمان، وسلامة الإيمان ألا يكون هناك شيء مِن الشرك. فكما قال بعضهم: سلامة إيمان الجن هؤلاء أنهم صَدَّقوا ثم تبرَّءوا ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

ومِن هُنا يَتَبين أنَّ دَعوة النَّاس للتوحيد، وتعظيم شأن التَّوحيد، وخاصة عند غير المسلمين، مِن أهم المُهمات، فإذا دَخلَ التوحيد إلى قلب الإنسان، تتغير أحواله، تتغير نفسيته، تتغير مشاعره.

➢ ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ عَظَمَةُ ربنا، وعَظِيم شَأن ربنا، ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ لم يَلد ولم يولد، الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، ولهذا كان قول هؤلاء الكفرة الذين ادعوا أنَّ له ولدًا: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٩]، أي: عظيمًا ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩٣].

➢ ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾، الجن قبل إيمانهم، وقبل سماعهم للقرآن الكريم، كان هناك لهم قادة، يتبعون كلامهم، ويأتمون بما يقولون، فلما جاء القرآن، ومن أسمائه الفرقان، فَرَّقَ بين الحق والباطل، وعلموا أن أولئك الزعماء، كانوا يقولون قولًا شططًا، أي: خارجًا عن الحق، وبعيدًا عنه.

➢ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ الظنُّ هنا بمعنى اليقين، وهنا كما تقدم، قد تأتي الكلمة ولها أكثر من معنى، تُعرف بالقرينة، وتُعرف بسياق الكلام.

➢ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ أي: أيقنَّا، ﴿أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ هذا كلام مُستبعد، وبعيد عن الذهن؛ لأنه أمر عظيم أن يَكْذِبَ الإنسان على ربه، بل الكذب بذاته مُستَبشع فطرة وعُرفًا، ناهيك عن قُبحه شَرعًا، والكذب أنواع، وأعظم الكذب: الكذب على الله -عز وجل؛ لأنَّه هو أعظم أنواع الكذب، ولهذا قال الرسول -صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[٢٩]؛ لأنَّ مَن كَذَبَ على الرسول -صلى الله عليه وسلم- فقد كَذَبَ على مَنْ؟ كذب على الله تعالى، فهو الذي أرسله.

➢ وهنا نستفيد أيضًا قُبح شَأن الكذب، وأنَّ المعصية تتفاوت في جُرمها، أو في عظيم شناعتها بحسب أحوالها، كما أنَّ الطَّاعة أيضًا تتفاوت مرتبتها بحسب أحوالها، فمثلًا مَن تَبَسم فالتبسم صدقة، ومَنْ بَرَّ والديه وأطاع أمرهما، فهو مأجور، فإذا تبسم في وجههما، فقد جَمع بين أمرين، فإذا تَلفظ في الحديث معهم بألفاظ طيبة، جمع بين البر الفعلي، والبر القولي، والتبسم.

➢ ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ذَكَرَ أهل التفسير أنَّ هذه الآية تحتمل عدة معانٍ، منها:

✓ كان رجال من الإنس يعوذون، أي: يلوذون برجال من الجن، فزاد الجنُّ أولئك الرجال من الإنس رهقًا، أي: خوفًا وذُلًّا، فإذا نزلت بهم نازلة، ذهبوا يستغيثون بأولئك الجن، حتى إنَّ بعضهم كان إذا

---

[٢٩] البخاري (١٢٢٩)، ومسلم في مقدمة صحيحه (٣) دون قوله: "إن كذبا علي ليس ككذب على أحد"

نزل الوادي، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي؛ ليَحمي ماشيته، أو لِيَحمي مَاله وأولاده، ولهذا زادَ الجنُّ الإنسَ ذُعرًا وخوفًا وذُلًّا.

✓ والتفسير الآخر: زادَ الإنسُ الجنَّ -الإنسُ فاعل- كِبرًا، وزادوهم، أي: الجن عُجْبًا في غير محله، لماذا؟ لتعظيمهم.

➢ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾.

ظَنوا أن ليس هناك بعثة، وأنَّ النُّبوة انقطعت، وهذا الظنُّ كله ذهب هباءً منثورًا ببعثة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم.

➢ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أَعْطَى اللهُ الجِنَّ قُوة يتمكنون بها من التنقل السريع ، فمكَّنهم الله من أمور، واعتادوا على استراق السمع، فلما أرادوا -كعادتهم- الاستراق، وجدوا أنَّ السَّماء ليست كما عهدوها، كانوا يَلِجُون ويستمعون إلى آخره، وهذا في حدود معينة، لكن هذا الأمر المألوف عندهم تغير، فعلموا أنَّه قَد حَدَثَ أَمر جلل، فهذا التغير في السَّماء، ومَنْعِهم مِن اقترابها، وأنها مملوءة حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا.

➢ ﴿مُلِئَتْ﴾ لاحظ التعبير ﴿حَرَسًا﴾ الحارس قد يكون ضعيفًا، فيُستغفل، لكن هنا ماذا قال: ﴿حَرَسًا شَدِيدًا﴾ وليس فقط من الحرس.

وهناك أيضًا ماذا؟ شُهُبٌ من نار، يُرمى بها مَن استرق السمع.

➢ ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ هذا الفعل الماضي، في المُضي، ﴿كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ وهذا كله بمشيئة الله تعالى، أقدرهم على أمور لحكمة، ثُمَّ مَنَعَهم لحكمة.

➢ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ﴾ جمع مقعد، أي: كُثر، كلٌّ له مقعد، هذه المقاعد الله تعالى أعلم بكيفيتها، قد تكون في الهواء، أو غير ذلك، الله أعلم بذلك، أمور غيبية، لا يضر الجهل بها؛ لأنَّ المعنى واضح، والمقصد واضح.

➢ ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ هذا في المضي، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ﴾ المضارعة الآن ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ﴾ ماذا يكون له؟ ﴿يَجِدْ لَهُ﴾ له هو، ذلك المُستمع، أي: له خاصٌّ به، كما قال: ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ [الطور: ٢٤]، خاصٌّ بأولئك، كما أنَّ هؤلاء الذين يَستمعون لهم إذا استمعوا وتعدوا حدودهم، يجدون لهم شِهَابًا رَّصَدًا، وهنا كما يقال الشيء المصيود، أو المصاب قد تخطئه الرمية، لكن هنا لا، يرصده، أي: لا يتعداه، بل يصيبه ولا يتجاوزه.

➢ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي﴾ هذه الأمور؛ لأنها أمور غيبية، وأمور كونية، وأمور عظيمة، تغير بها مجرى التاريخ، بهذه البعثة النبوية، على صاحبها أتم الصلاة والتسليم.

➢ ﴿وَأَنَّا﴾ أي: الجن يقولون ﴿لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ قالوا: من أدب الجن: لما ذُكر الشَّرُ، أتوا بما لم يُسمَّ فاعله، وهو ما يُعرف بالمبني للمجهول، ولما ذُكر الخير "الرُّشد"، نَسَبوا ذلك لله تعالى، مع أنَّ الأمر كله لله.

- ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، هذه الرسالة هي من عاند وخاصم وكفر بها، هي وبالٌ عليه، ومن آمن وصدق واتبع، فهي رحمة ورشاد له.
- وهنا ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي﴾ ينبغي للإنسان في الأمور الغيبية، أو الأمور التي ما ينبغي للإنسان أن يجزم بخبر لها، وهناك احتمالات أخرى، قد تكون في القوة نفسها؛ لأن الجزم والقطع بالنتيجة ليس مَنهجًا سويًّا، بل قد يكون مِن القول بلا عِلم، فهؤلاء الجن تأدبوا، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي﴾، ما أدركوا، حتى الآن ما ظهرت النتيجة، وما ظهر الأمر واضحًا، حتى يجزموا بأي الأمرين ذلك.
- فنستفيد أنَّ الإنسان بخاصة طالب العلم لا يَجزم، وبخاصة فيما يتعلق بتنزيل الوقائع على الله -سبحانه وتعالى، أو تنزيل النصوص على الوقائع المعاصرة، فالجزم والقطع بها ليس منهجًا سويًّا.
- ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ الإنس يتفاوتون، ففيهم الطائع، وفيهم المقصِّر، وفيهم المنافق، وفيهم الكافر، وكذلك الجن، فالجن يختلفون في طاعة الله تعالى، منهم صالحون، ومنهم دون ذلك كما سيأتي ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾، وهذا بحسب اجتهاد الشخص، وبحسب ديانته وصدقه، واستجابته.
- ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ مختلفين، ﴿قِدَدًا﴾ قَدَّدَ اللحم ،أي: قطَّعه، متفرقون، أحزاب وطوائف، كما في الإنس.
- ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ يعرفون مهما فعلوا، ومهما ابتعدوا لن يصلوا إلى نتيجة، فَفروا يعني يفرون من الله إلى الله، أين يفرون؟
- ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ سرعة استجابة وقبول، وانظر إلى ما فتح الله عليه أبصارهم وقلوبهم: ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ﴾ إيمان، وقد تقدَّم في أول السورة: ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ﴾ إذن تخلصوا مِن شوائب الشرك جميعًا، وأصبح إيمانهم بالله تعالى خالصًا، ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، ولهذا في سورة التغابن، يقول تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، قرأت وسمعت أن هناك قراءة، لا أدري، أنتم أدرى مني: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدَأ قَلْبَهُ﴾[٣٠]، ولهذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب، كما في حديث هرقل وأبي سفيان[٣١]، يشعر الإنسان بالراحة النفسية والبدنية، ومن ثمار ذلك: أنَّ مَنْ يُؤمنُ بربه لا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا، فلا يقلق، ولا يقنط، ولا ييأس، وإذا نزلت به المصائب، تعامل معها التعامل الشرعي، فلا يعترض على قضاء الله وقدره، بل يرضى عن أقضية الله الدينية والكونية، ويسأل الله أن يرضى عنه، ولهذا كلما زاد إيمان العبد، كلما تلذذ في الحياة، تلذذ في قراءته، في عبادته، حتى في أكله وشربه ونومه، وفي مشيته وجلوسه، يشعر بحلاوة الإيمان.

---

[٣٠] قال الشنقيطي في أضواء البيان في تفسير سورة التغابن: "وقوله: ومن يؤمن بالله يهد قلبه، قرئ (يهدأ) بالهمز من الهدوء، و (قلبه) بالرفع، وهي بمعنى يهدي قلبه؛ لأنه يعلم أنَّ مَا أَصَابَه لم يكن ليخطئه، فيسترجع فيطمئن قلبه بهذا ولا يجزع، وهذا من خصائص المؤمن. كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا فِي قَدَمِهِ"

[٣١] قال هرقل لأبي سفيان .كما في البخاري: "وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطا على دينه بعد أن يدخل فيه؟ فأجبت: لا. قال هرقل: وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب.

- ﴿فلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ وعلى النقيض، فضعيف الإيمان يقلق ويقنط منذ أن تصيبه مصيبة، ويحزن، ويبقى في خوف مُستمر، وفزع، وساوس؛ لأنَّ إيمانه ضعيف، وكما قوي إيمان العبد، كلما زاد خيره الحسّي والمعنوي.
- قبلها الآية مرَّت: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾، وهنا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾، وتقدَّم الرُّشد، أنه الخير، أو الجامع لخيري الدنيا والآخرة، الحسي والمعنوي، والمسلمون منهم تَحَرَّوْا رَشَدًا، ووفِّقوا إليه.
- ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

الله تعالى يحب الْمُقْسِطِينَ، وهنا قال: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، كيف ذلك؟

الْقَاسِطُونَ هنا هم: الظالمون، ليس على معنى الْمُقْسِطِينَ،هناك فرق بين الْمُقْسِطِينَ، وبين الْقَاسِطِينَ، فالمُقسِطون هذه صفة مَدح لهم، العدل والفضل، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فصفة ذم، وكما ذكر ربنا: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ﴾ فه يختلفون، وهم مراتب، الكفار، الظلمة، هذا قاسط في حكمه، في قضائه، أي: ظالم وجائر، والأكبر هو الكفار هؤلاء.

- ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ انظر إلى المبالغة في عذابهم، أبدانهم وعظامهم حطب لجهنم، زيادة في تعذيبهم، أجارنا الله جميعًا ووالدينا والسَّامعين والمشاهدين من ذلك، وجعلنا من أهل الفردوس الأعلى.
- ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ﴾ هنا قالوا: هذه الآية كمثل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ﴾ [الأعراف: ٩٦]، لو أنهم أطاعوا الله واتقوه، لجاءتهم الخيرات والبركات، وهؤلاء لو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ -الإسلام- أَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا، وقد ذكر الماء دُون غيره؛ لأنَّ الماء أصل الأشياء، فَذِكرُهُ يدل على ذِكْر مَا دُونه مِن الطَّعام والشَّراب، وقيل: لأنَّ الماء كان قليلًا في ديار العرب، جبال مكة، فذكره تعظيمًا لشأنه.
- ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، قال بعضهم: وللآية معنًى آخر: أنهم لو لم يُسلموا، واستمروا على عنادهم، سَنُنْعِم عَليهم، لكن هَذه النِّعم لهم أم عَليهم؟ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، فتارة النِّعم تكون مِنَحًا من الله، وفضلًا للطائعين، لكنها تكون استدراجًا وعقوبةً مُعَجَّلة للعاصين.
- ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾، قالوا: ﴿صَعَدًا﴾ لأن العذاب يغشاه، يأتيه من فوقه، كأنه صَعَد عَليه من شدته، والإعراض عن ذكر الله مِن أعظم الأمور: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ ضيِّقة، أي: في نكد، ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، لاحظ، في الدنيا يعيش في نكد وعمى معنوي، لا يُبصر الحق، وفي الآخرة أعمى عن الخير، ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، عذابٌ في الدنيا مُعَجَّل، وعذابٌ في الآخرة مؤجَّل.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الحادى عشر

➢ ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾، ذكر بعضهم أنَّ المساجد هي: الأماكن التي خُصَّت فيها الصَّلاة، وهي المساجد المعهودة، وخصَّها بعضهم بالحرم المكيّ.

والصَّحيحُ أنَّ كلَّ مكانٍ يُصلَّى فيه، وكلُّ مسجدٍ يُصلَّى فيه؛ لا تُصرف فيه العبادة إلا لله تعالى.

وقال بعضهم: يُراد بها الأعضاء السَّبعة، والصَّحيح كما هو المشهور: إنَّها أماكن العبادة في أيِّ مكانٍ كانت، وفي أيِّ وقتٍ كانت، وأنَّ العبادات لا تُصرف فيها إلا لله تعالى.

➢ وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾ الدُّعاء يُقسِّمه أهلُ العلم إلى قسمين.

- ❖ **دعاء المسألة:** أن يدعو العبدُ ربَّه، يطلب العبدُ من ربِّه: يا رحمن ارحمنا، يا كريم أكرمنا، وهلم جرا.
- ❖ **دعاء العبادة:** أن يتعبَّد العبدُ لربِّه بالصَّلاةِ، بالزَّكاةِ، بالحجِّ، وهو بذلك يرجو ثواب الله، ويخشى عقابه.

➢ فجميع أنواع العبادة تُصرف لله تعالى، وهذا مِن تَحقيق التَّوحيد، ولهذا قال هنا في الآية: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، يشمل هذا كما تقدَّم جميع أنواع الدُّعاء، فمَن دعا غيرالله فقد خرج من هذه الآية، مَن دعا نبيًّا مُرسلًا، أو ملكًا مُقرَّبًا، أو كما يُسمَّى وليًّا أو ضريحًا؛ كل هذا ينافي التَّوحيد.

➢ وهذا ممَّا يُؤكِّد على أنَّ الواجب على مَن يدعو النَّاسَ أن يُعظِّمَ جَناب التَّوحيد، وأن يُعظِّمَ شأنَ التَّوحيد، توحيد العبادة -وهو توحيد الألوهيَّة- وتوحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الأسماء والصِّفات، ولهذا كان مِن تَناقض العرب -كما يقول بعض المفسرين: أنَّهم أقرُّوا بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ، فمَن أقرَّ به يلْزمه أن يُقرَّ بتوحيد الألوهيَّة، إذا آمن بأنَّه الخالق المدبِّر الرَّازق المحي المميت، فيلزم من ذلك أن يكون مُستحقًّا للعبادةِ، لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، وأنَّه لا شبيهَ له، ولا ندَّ له، ولا مثيلَ له لا في أسمائه ولا في صفاته.

➢ الآية التي بعدها: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ قالوا: التَّعبير هنا بـ ﴿عَبْدُ اللَّهِ﴾ مِن باب الإيضاح، ومِن باب أنَّه مهما بلغ في الفضل والكرامة إلا أنَّه لا يزال عبدًا لله -عزَّ وجل.

➢ ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ لِبَدًا: بعضهم فوق بعض، وقوله هنا ﴿كَادُوا﴾، الضمير يرجع إلى مَن؟ سياق الآيات وحال الخبر يدل على أنَّه يرجع إلى الجنّ، لكن ذهبَ بعضُ أهلُ التَّفسير إلى أنَّه يرجع إلى المشركين؛ لأنَّهم اجتمعوا وتظاهروا عليه، وتكاتفوا على صدِّ دعوته، وعلى ردِّ ما يدعو إليه، وبكلِّ حالٍ إذا كانت الآية تحتملُ أكثرَ من معنًى؛ فلا مانع أن يُقال بجميع المعاني، ولا يُخرج منها معنًى والآية ولا تشمله إلا بدليل.

➢ ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، قال أهلُ التَّفسير: إنَّ الجنَّ لما سمعوا القرآن الكريم؛ كاد بعضهم أن يركبَ فوق بعض حرصًا منهم على سماع القرآن الكريم، وفي هذه الآية تذكيرٌ لنا بآيةِ الأحقافِ، حيث ذكرَ الله حِرصَ الجنِّ وعِنايَتهم وتقبُّلَهم لدعوةِ الرَّسول -عليه الصَّلاة والسَّلام- وذكر أمورًا وقعت من الجنِّ، قد

أُسمِّيها: من آدابِ الجنّ في طلب العلم، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

- **من آداب الجنِّ الذين وَفِدوا على الرَّسول صلى الله عليه وسلم في هذه الآية،**
  - **الأدبُ الأول:** أنَّهم لَّما حضروا قالوا: أنصتوا، أي: أمر بعضُهم بعضًا بالإنصات؛ حتى يعوا ما يسمعون، ويفهموا ويعقلوا ما يُتلى عليهم.
  - **الأدبُ الثاني:** ﴿قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ﴾ لم يقوموا أثناء مجلس العلم، بل ما زالوا باقين حتى انتهى المجلس وانقضى.
  - **الأدبُ الثالثُ:** لم يقوموا عن المجلس، بل استمروا في جلوسهم حتى انتهى المجلس، فإنَّ الفائدةُ تتمُّ إذا حضرَ الطَّالبُ المجلسَ كلَّه، قد يقوم في آخره؛ فتفوته فائدةٌ نفيسة تعدِل ما سبق، وقد يقوم في وَسَطه؛ فيُبتَر عليه العلم، أو تنقطِع عليه الفائدة الكاملة.
- ﴿وَلَّوْا﴾، أي: بادروا وأسرعوا، ونستفيد من هذا أنَّ الإنسان إذا علِمَ ووعى وفَهِم فعليه أن يبادر إلى العمل.
- ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم﴾ بدءوا بعدما علموا بأنفسهم، بدءوا بإنذار قومهم، ولهذا قال الله للرَّسول صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وفي قوله تعالى في سورة التَّغابن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، قال علي رضي الله عنه: "علموهم الخير"[32].
- ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم﴾ لماذا كان الذهاب إلى قومهم؟ ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ النَّذارة تشمل الإخبار بالخيرِ ليلزموه، والإخبار بالشَّرِّ ليحذروه.
- هناك أيضًا بقيَّة لخبرهم في سورة الأحقاف، حتى تكمل الفائدة في هذا المبحث: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].
  - **الأدبُ الرابع:** لاحظ أدب الجنِّ في دعوتهم لقومهم، قالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا﴾، والدَّاعي إذا ذَكَرَ صِلته بالمدعو كان أقرب إلى قبول المدعو لما يُدعَى له، ولهذا دائمًا من السِّياسة الدَّعويَّة أن يَنهَجَ الدَّاعي نهجَ الأنبياءِ -عليهم الصَّلاة والسَّلام- فإبراهيمُ -عليه السَّلام- لما دعا أباه قال: ﴿يَا أَبَتِ﴾، ﴿يَا أَبَتِ﴾، ﴿يَا أَبَتِ﴾، نوحٌ -عليه السَّلام- قال: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، النَّبيُّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- قال: «أَيْ عَمِّ قُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ»[33].
- وهنا قالت الجنُّ: ﴿يَا قَوْمَنَا﴾، لكن لو قالوا مباشرة: (أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ)، نعم هي دعوةٌ للخير، لكن تصدير النِّداء، ونداء المدعوِّين بقرابتهم للدَّاعي؛ يجعلهم أكثرَ قابليَّة.
- ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا﴾، ما فكَّروا ولا تشاوروا؛ بل قالوا مباشرة: أجيبوا داعي الله؛ لأنَّه خيرٌ محضٌ، وفيه التَّحذير من الشَّرِّ كلِّه.
  - **الأدبُ الخامس:** وفي قوله: ﴿يَا قَوْمَنَا﴾ وهو أنَّهم بدءوا بالقرابة.

---

[32] مستدرك الحاكم (٣٨٩٧) بلفظ "علموا أنفسكم وأهليكم الخير".

[33] صحيح البخاري (٣٨٨٤).

❖ **الأدب السَّادس: ﴿أَجِيبُوا﴾**؛ لأنَّ هذا أمرٌ فيه الخير كله، خير الدُّنيا، وخير البرزخ، وخير الآخرة.

- ﴿دَاعِيَ اللَّهِ﴾ ربطوا هذه الدَّعوة بالله تعالى، وهذا مِن أساليب التَّحبيب والتَّرغيب؛ لقبول ما يدعو إليه الدَّاعي.
- ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ إجابة وإيمان، بالقلب والجوارح.
- ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾ لاحظ أنَّ عندهم عِلم، يعلمون أنَّ قومهم يعلمون بالكتاب الذي أُنزل على موسى، ويعلمون بنبوَّة موسى -عليه السَّلام- وأنَّ هذا القرآن الذي سمعوه مُصدِّقٌ لما بين يديه، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فدعاةُ الجنِّ لَمَّا دعوا قومهم، ربطوا دعوةَ الأنبياءِ بعضها ببعضٍ، وأنَّ دعوةَ الأنبياء كلَّها واحدة، وأنَّ هذا الكتاب يُصدِّق ما قبله، وأنَّ الكتاب السَّابق يُخفَى عن اللَّاحق، وهذا مِن فِقههم في حُسن سلوك دعوة قومهم، وهذا ممَّا يُرغِّب المدعو في دعوة الداعِ له؛ لأنَّ عندهم علم بنبوةِ موسى، وإلا فهم ما أخبروهم عبثًا، إنَّما أخبروهم لأنَّهم يعرفون أنَّ موسى -عليه السَّلام- نبي، وأنَّه أُنزل عليه كتاب، وأنَّ هذا الكتاب الذي سمعناه آنفًا أو قريبًا يصدِّقه ما أنزل الله على موسى، يَهدِي إِلَى الحقِّ وإلى طريقٍ مُسْتَقِيمٍ.
- هذا يؤكِّدُ حرصَ الجنِّ الذين سمعوا القرآن على الخيرِ، ويؤكِّدُ حبَّهم للخير، وحبَّهم لدعوةِ قومهم إلى الخير.
- أيضًا نفس النِّداء، ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا﴾ كما تقدَّم: أجيبوا، أي: لا تترددوا ولا تستشيروا؛ لأنَّ هذا خيرٌ محضٌ، لا تجيبون زيدًا لأنَّه ثري، أو فلانًا لأنَّه كذا؛ أجيبوا هذا الرَّجلَ الذي يدعو إلى الله وأرسله الله، والنَّتيجة: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، كلُّ هذا ترغيبٌ وترهيبٌ، ودائمًا إذا تأمَّل الإنسانُ في هذا المسلك، يجد أنَّه جمع حُسنَ الأسلوب في دعوةِ المدعوّين، والدَّاعي إذا تحبَّب إلى قومه وبيَّن لهم ما يترتَّب على الإجابة من الخير، ورغَّبهم فيه، وفي المقابل ما يترتَّب من الشَّرِّ وحذَّرهم فيه؛ كان ذلك أدعى لقبولهم.
- للفائدة: هذه الآية ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ ثواب الجنِّ في الآخرة: النَّجاة من النَّار فقط وليس الجنَّة، لكن هذا القول ردَّه أهلُ العلم وقالوا: جاء في سورة الرحمن مَا يؤكِّد دخولهم الجنَّة ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦].
- ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجاثية: ٣٢].

كما تقدَّم أنَّ الجنَّ حذَّروا قومهم من مَغبَّةِ العِناد والشِّقاقِ وعدم القَبول، وأنَّهم لا يضرُّون إلا أنفسهم، وأنَّهم لا ينفعون إذا استجابوا إلا أنفسهم.

- ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾، يعني لن يفعل شيئًا، ولن ينصره أحد، وعاقبة أمره: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.
- وهذا الأسلوب مِن دُعاةِ الجنِّ إلى قومهم جَمَع حُسنَ الأسلوب في طريقة دعوة الدَّاعِ لقومه، وفي التَّحبب لهم، وفي الجزمِ بدعوة للخيرِ، وحثِّهم على عدمِ التَّردُّدِ، وفي بيانِ الخيرِ ليسلكوه، وبيانِ الشَّرِّ ليحذروه.

- وهذا بيانٌ لحرصهم هنا كما قال الله تعالى: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، يؤخذ من هذه الآية أيضًا: الحرص على سماع مجلس العلم، وكانوا في الزَّمنِ الأوَّلِ لم يكن فيه مكبرات صوت، فكان الطُّلاب يحرصون على القُربِ من المُحدِّث، حتى إنَّ بعض مَن كتب في الزِّيادات وما يتعلَّق بالرِّواية: أنَّ من المرجِّحات إذا اختلف الرَّاويان في لفظةٍ، فروى أحدُهم بلفظٍ والآخرُ بلفظٍ؛ فيؤخذ ممَّن كان أقرب للمحدِّث؛ لأنَّه أوعَى لِما يَسمع مِن البعيد الذي قد يسمع وقد تخفى عليه بعضُ الحروفِ، أو بعضُ الكلماتِ.
- ما ذكره الله تعالى عن الجنّ من أنَّهم دعوا قومهم، وأحسنوا الأدبَ في دعوةِ قومهم، وعظَّموا شأن التَّوحيد وحثُّوا عليه قومهم؛ فإنَّ ممَّا يُؤسَف له أن ترى بعضَ النَّاسِ يُفرّط في دعوةِ التَّوحيد، وإن دعا تجده يدعوا للتَّوحيد إجمالًا، وبعضهم يقول: أخشى التنفير!
- فإذا وفَّقَ الله الداعي، وأحسنَ الأسلوب في الخطابِ مع النَّاس، وعرض لهم التَّوحيد بالعرْضِ الواضحِ النَّقيّ، وأحسنَ ضربَ الأمثلةِ؛ ففي الغالب أنَّ المدعوين يقبلون، حتى لو أنَّ بعضَهم ما قَبِلَ، فلن يُعاند في الغالب؛ لأنَّ العَرضَ الذي عُرض عليه ليس فيه تنفيرٌ، ولا فيه تهجُّمٌ، إنَّما فيه بسطٌ للحقِّ، وبيانٌ للحقِّ، ولهذا بعضُ النَّاس يقول: هؤلاء قبوريون، هؤلاء عند الأضرحة، لا ينفع فيهم النُّصح، نشؤوا على هذا الأمر؛ لا، ليس بصحيح، بل أحسِن الظَّنَّ بالله تعالى، وأحسِن عرض دعوة التَّوحيد، وبيِّن لُطف الله تعالى بخلقِه، وإحسان الظَّنِّ بالله، وبَيِّن سِعة رحمة الله، وفي المقابل بيِّن أنَّ الله تعالى أقام الدَّلائل، وأنَّه مستحقٌّ للعبادة، وأنَّ مَن وحَّد فسينجو في الدُّنيا، وفي والآخرة، وفي البرزخ، وأنَّ مَن خالف التَّوحيد وعاند التَّوحيد؛ فلن يضرَّ إلا نفسه.
- أنا قصدي من هذا الكلام، وما في معناه: تعظيمُ شأنِ التَّوحيد، والإكثار من الكلام فيه، وربطِ الأعمال به، وخاصةً مع الصِّغار، فأعظم نفعٍ لهم أن تربط أمورهم وأحوالهم بالتَّوحيد، فإذا نجح في امتحانه تقول: احمد الله الذي أعانك على النَّجاح، احمد الله الذي أعطاك عقلًا تُفكِّر به. إذا شفاه الله من مرض، تقول: احمد الله الذي لا يعافي إلا هو، ولا يصرف الضر إلا هو، وهلمَّ جرا.
- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾.

صفاء التَّوحيد يَلزم منه ذَهاب الشِّرك، ما يجتمع الضِّدان، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾، الضِّدان لا يجتمعان أبدًا، إذا حلَّ أحدهما؛ ارتفعَ الآخر، ولهذا بعض الدعاة يُبين للنّاس التَّوحيد، وهذا طيب هذا هو الأصل، لكن يُغفِل القوادِح العَقديَّة التي تَقدح في التَّوحيد؛ لأنَّ النَّاس إذا أخبرتهم عن التَّوحيد، قد يُمارسون بعض أنواع الشِّرك عن جهالةٍ، فبعضهم يَسمع التَّوحيد، ويَحفظ بعضَ متون التَّوحيد، لكن لا يفقه المعنى، قد يذهب للسَّاحر، قد يُصدِّق بأبراج الحظِّ، قد يذهب للكاهن، قد يعتقد في النُّجوم، إلى آخره، ولهذا فممّا يزيد التَّوحيد إيضاحًا أن تُحذِّر النَّاس مِن القوادح التي تقدحه، وخاصَّةً ما كانوا متلبِّسين به.

- بعض المجتمعات تكون مُبتلاة ببعض القوادح العَقديَّة، كالأضرحة، كالتَّصديق بالذِّهاب إلى السَّحرة، كالاعتقاد في النُّجوم، أناس نشئوا وشبُّوا وشابوا على ذلك، فمع بيانِ التَّوحيد يتلطَّف في بيانِ أساليب

القوادح العقيديَّة التي نشؤوا عليها؛ حتى يستطيع الدَّاعي أن يجذبهم إلى حياض التَّوحيد دون أن ينفرِّهم منه.

- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، هذا هو الرَّسول صلى الله عليه وسلم، لا يملك لهم ضَرًّا ولا رَشَدًا، حتى لنفسه؛ إلا إذا أعانه الله تعالى عليه، فهذه الآية مع النُّصوص الأخرى تهدم الغلو في مقام الرَّسول -عليه الصَّلاة والسَّلام- ومن غلا في مقام الرَّسول صلى الله عليه وسلم، وزعم أنَّه يحبُّه؛ فهذا ليس من محبته، بل هذا من مخالفته؛ لأنَّه صلى الله عليه وسلم نهى عن الغلو، والله تعالى أخبر في هذه الآية عنه -عليه الصَّلاة والسَّلام- أنَّه لا يملك لنفسه ضَرًّا ولا رَشَدًا، فبعضهم يغلو في مقام النُّبوَّة، ويقول: الرَّسول صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب! مع أنَّه -عليه الصَّلاة والسَّلام- يوم القيامة إذا رُدَّ أُناسٌ عن حوضه يقول: «يَا رَبِّ، أَصْحَابِي»، فيُقال له: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»[٣٤]، فماذا نستفيد من هذا اللفظة؟ نستفيد منها أنَّه صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب.
- قل يا محمد لهم: ﴿إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾، كلمة "أحد" تشمل كلَّ أحدٍ أيًّا كان، أي: لن يجيرني من الله لا جنٌّ، ولا إنسٌ، ولا مَلكٌ.
- ﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ قيل "الملتحد" هو عبارة عن الشَّق والميل في الأرض، فهو يقول: لن أجد أحد ينصرني، أو يجيرني، أو يأويني من الله البتَّة، وكما قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].
- ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ كل هذا تحقيق لشأن التَّوحيد، ولهذا ينبغي تعظيم التَّوحيد في ألسنةِ الدُّعاة، وفي كتاباتهم، وفي محاضراتهم، وربط النَّاس بالتَّوحيد، وبخاصَّة في هذه الأوقات التي زَهِدَ كثير من النَّاس في الكلام عن التَّوحيد.
- ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لهم: لن يجيرني من الله أحد، لن يمنعني من الله أحد، ولن يعصمني من الله أحد، ولن يدفع عني ما أراد الله به من أحد.
- ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أُبلِّغ ما أُمرت به، أُبلِّغ رسالات الله التي أمرني بها، وهذا الذي سينفعني عند ربي، أن أطيع الله تعالى، وأُبلِّغ ما كُلِّفتُ به، وأتحمَّل في ذلك ما يأتيني.
- ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ قال بعض المفسرين: المعصية هنا هي المعصية الكفريَّة؛ فليس كلُّ معصيةٍ تدخل النَّار، إلا الوقوع في الشِّرك وما شاكله.
- ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾، بعضهم قال: هذا في بدر، ولعلَّ الصَّحيح: إذا رأوا العذاب، رأوا أنَّ ما كانوا يفخرون به، أو ما كانوا يتعاظمونه، ويدَّعون أنَّهم أقوى؛ سيعلمون في تلك اللحظة وتلك الساعة مَن أضعف ناصرًا وأقلُّ عددًا، وأنَّ العاقبة للمتَّقين وسيعرف هؤلاء المعاندون والمخالفون أنَّ قوتَّهم وأنَّ أعدادهم مهما كثُرت فهي قليلة وضعيفة، بالنِّسبة لما يؤول إليه الأمر في الآخرة.

---

[٣٤] صحيح البخاري (١٣٣١٦).

- وأيضًا نستفيدُ: عدم الاغترار بالكثرة، وأنَّ القلَّة قد تكون محمودةً، ولهذا في القرآن الكريم جاءت آيات كثيرة في ذمِّ الكثرة.

فلا يغتر الإنسان بالكثرة، لو كان عندك عددَ الحصى والرَّملِ من الجنود، أو من المال، فليس هذا دليل على القوَّة والغلبة؛ لأنَّ المحمود إذا كان الأمر في طاعة الله، والقلَّة في طاعة الله أفضل وخيرٌ من الكثرة في معصية الله تعالى.

- ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ لا يدري هذا الذي وُعدوا به من العذاب أو من قيام السَّاعة متى يكون، وعلى القول إنَّها السَّاعة؛ فهذا أمرٌ غيبيٌّ محضٌ، لا يعلمه إلا الله -عز وجل- فعلم السَّاعة أخفاه الله، لكن هناك قرائن ودلائل على قرب قيام السَّاعة، الآيات ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، وما جاء من العلامات لقيام السَّاعة، قد قسَّمها بعضُ العلماء إلى: علامات صغرى، وعلامات كبرى.
- وقسَّمها بعضهم من حيث الوقوع إلى: علامات وقعت وانقضت، وعلامات لم تقع، وعلامات وقعت ولا تزال مستمرة.
  - كثرة القتل من علامات السَّاعة، ظهرت ولا تزال تتابع.
  - قالوا: من العلامات التي ظهرت وانقضت: البعثة النبوية وموت الرَّسول -عليه الصَّلاة والسَّلام.
  - وعلامات لم تظهر بعد، مثل: خروج الدَّجال، وما شاكله.
  - أيضًا من عِلم السَّاعة أنَّها لا تكون إلا في يوم الجمعة، لكن في أي سنةٍ؟ في أي شهرٍ؟ في أي مكانٍ من الشَّهرِ؟
- ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ الله تعالى هو المتفرِّد بعلم الغيب، ولا يُظهر على غَيْبِهِ أحدًا، ثم أتى الاستثناء "إلَّا" ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ علم الغيب أخفاه الله تعالى واستثنى من ذلك مَن ارتضى من الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام- ولهذا فكلُّ حديثٍ نقرأه: "لا تقوم الساعة حتى يكون كذا..."، يكون من علم الغيب بالوحي، فأخبر الرَّسول صلى الله عليه وسلم عن أمورٍ ووقعت بعد مئات السِّنين **«لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ تُضِيءُ لَهَا أَعْنَاقُ الإِبلِ بِبُصْرَى»**[٣٥]، خرجت في القرن السابع تقريبًا، في زمن الإمام النَّووي -رحمه الله تعالى- وجاءت أحاديث كثيرة وتحقَّقت فيها نبوءة الرَّسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّها غيب أطلعه الله تعالى عليه.
- ونستفيد أنَّ كلَّ مَن ادَّعى علمَ الغيبِ أنَّه كذَّابٌ أشِرٌ، وأنَّ دعواه باطلة، وهؤلاء الكهنة والسَّحرة والعرَّافون، ومَن يقرأ الفنجان، أو يقرأ الكف؛ كل هؤلاء يُسترزقون، ويُضلُّون النَّاس، والنَّاس بعضهم سُذَّج يُصدِّقون.
- وهناك أمورٌ غيبيَّة تُدرَك بالأسباب، مثل: الكسوف والخسوف، فهو من العلوم علوم فلكية التي تُدرَك بالأسباب، كما أجرى الله سننه في الشَّمس أنَّ لها درجات، وأنَّ القمر له منازل، وأهلُ التَّخصُّصِ يعرفون بما أجرى الله به السُّنَّة الكونيَّة، هم يقولون: نعرف متى الشَّمس تنكسف، كما نعلم أنَّ الليل يعقبه نهار، هذا

---

[٣٥] صحيح ابن حبان (٦٩٩٦).

ليس غيبًا، نحن درسنا سُنن الله تعالى، بما أطلعنا الله تعالى عليه من العلم، وأدركنا وتوصَّلنا إلى أنَّ هذا الكوكب مرتَّب على سنَّةٍ كونيَّةٍ، فعرفنا متى يكون الكسوف بأمر الله تعالى، فلا يُعتبر هذا من الرَّجم بالغيب.

- ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ له معقبات، الرَّسول صلى الله عليه وسلم يحفظه الله تعالى، ويحفظ وحيه، ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ويصل الوحي إلى النَّاس محفوظًا من التَّحريفِ والتَّبديلِ، وقد حمى الله تعالى رسوله -عليه الصَّلاة والسَّلام- وحمى الذِّكر والوحي ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].
- ﴿لِيَعْلَمَ﴾ منهم من قال: ليعلمَ الرَّسولُ أنَّ الملائكة أدُّوا الرِّسالة إليه فأدَّاها.

ومنهم من قال-وهو الرَّاجح: ليعلمَ اللهُ تعالى علم ظهورٍ أنَّ هؤلاء الرُّسل -عليهم السَّلام- أنَّهم بلَّغوا الرِّسالة كما أمرهم وائتمنهم، فأدُّوا الأمانة، ونصحوا الأُمَّة.

- ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أبلغوها كاملةً غير منقوصةٍ.
- ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾، كلَّ ما كان وسيكون في هذا الكون فمردُّ أمره ومردُّ علمه إلى الله تعالى.
- **هذه السُّورة الكريمة إجمالًا فيها فوائدُ كثيرة منها.**
  - **الأولى:** تعظيم شأن التَّوحيد.
  - **الثَّانية:** التَّحذير من الغُلوّ في الأنبياء والرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام.
  - **الثَّالثة:** أدب الجن وحرصهم على تلقِّي العلم وعلى تبليغه.
  - **الرابعة:** الغيب أمره إلى الله تعالى، وأنَّ مَن ادَّعى الغيبَ فهو كاذبٌ كافرٌ بالله تعالى؛ لأنَّ الغيب -كما قال ربُّنا في غير آية: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].
  - **الخامسة:** الذِّهاب إلى السَّحرة والكَهَنة ومُدَّعِي الغيبَ حرام لا يجوز.
  - **السَّادسة:** الدَّاعي إلى الله بحقٍ محفوظٌ، ومُسدَّدٌ، ومُؤيَّدٌ، ولو أصابه ضرٌّ في بدنه أو ماله، فذلك من المُضاعَف درجاته يوم القيامة.
  - **السَّابعة:** السَّاعة لا يعلم وقت وقوعها إلا الله -عز وجل- ومن عجائب عقول كثير من النَّاس، أنَّهم إذا أخبرهم مُنجِّمٌ أو أحدٌ هؤلاء الضُّلَّال من السَّحرة والكَهَنة، أنَّ العالَم سينتهي كذا، بنوا على كلامه تصوُّراتٍ، وبنوا على كلامه آلامًا وآمالًا، وهذا لا يقع إلا من لَبَّسَ عليه الشَّيطان.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

الدرس الثاني عشر

- وَرَدَ في فضل سورة الْمُزَّمِّلُ حديثٌ لا يَصح، وهو: "من قرأ سورة الْمُزَّمِّلُ، دفع الله عنه العسرى في الدنيا والآخرة"[٣٦]، وهذا الحديث لا يَصح سنده.
- ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ المُراد به النَّبي -صلى الله عليه وسلم، المتزمل في ثيابه، وهنا ذكروا أنَّ الْمُزَّمِّلُ هو المدثر، وقال بعض أهل التفسير: إنَّ المُدثر كان خِطابًا له في أول النبوة، فَلَمَّا مَضَى فَترة، تَزَمَّل في ثيابه، فَخُوطب بالقيام لصلاة الليل، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾.
- ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا: إنَّ قِيام الليل كان واجبًا على النَّبي -عليه الصَّلاة والسَّلام، بل وعلى أصحابه، وخصَّه بعضهم بأنه كان من الخصائص النَّبوية، واستمر -عليه الصَّلاة والسَّلام- يقوم الليل حتى توفاه الله تعالى.
- ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قيام الليل بجميع ساعاته فيه مَشقة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿نِصْفَهُ﴾ أي: نَصِّفْ الليل ﴿أَوِ انقُصْ﴾ أي: انقُص مِنَ النِّصف قَليلًا، فيكون الثُّلُث، ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ زد على النِّصف، فيكون المجموع قُرابة الثُّلُثَين، ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾.
- قالوا إنَّ الأمر بِقيام الليل في أول النُّبوة، والكثرة من الصَّلاة والمناجاة فيه قوة، وفيه نوع من زيادة الثبات، والتلذذ بالمناجاة الإلهية، وهذا مما يعطي صاحبه قوة بدنية، وقوة معنوية، ولهذا تَرَى طَالب العِلم إذا كان صَاحِب قِيَام ليلٍ، وصاحب تلاوةٍ، وصاحب تحنُّث، وللعبادة مكان من وقته لا تؤثر على دعوته، يكون أكثر نشاطًا مِن غَيره.
- قِراءة القُرآن الكريم على أقسام، وعند هذه الآية بالتَّحديد ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾، جاء أثرٌ عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- في تفسير البَغوي، الأثر فيه ضعف يَسير، لكنَّ المَعنى صحيح، وله شواهد مِن أقوال الصَّحابة والتَّابعين، يقول: "لا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَلا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ"[٣٧]
- قراءة القرآن على تدبر وترتيل وتأن أفضل مِن كثرة القراءة بلا تدبر.
- ولهذا ذُكر عن بعض الصحابة أظنه ابن عمر، أو غيره، -رضي الله عنهم جميعًا: لأن أقرأ آية بتدبر، أحبُّ إليَّ من قراءة ختمة بلا تدبر[٣٨].

---

[٣٦] قال الشوكاني رحمه الله: "رواه العقيلي عن أبي بن كعب مرفوعاً ، قال ابن المبارك : أظن الزنادقة وضعته". وهذا الحديث بطوله ذكره ابن عدي في الكامل (٢٥٨٨/٧)، والسيوطي في اللآلي المصنوعة (٢٢٧/١) والذهبي في ترتيب الموضوعات (٦٠) وغيرهم.

[٣٧] رواه ابن أبي شيبة وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه.

[٣٨] قال ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة: لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامع لجميع منازل السائرين.. فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها.. فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح، فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب ولهذا قال ابن مسعود: لا تهذوا القرآن هذ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، لا يكن هم أحدكم آخر السورة. وروى أبو أيوب عن أبي حمزة قال: قلت لابن عباس إني سريع القراءة إني أقرأ القرآن في ثلاث قال: لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كما تقرأ. اهـ.

- ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

﴿إِنَّا﴾ يعود لله تعالى، ضمير الجمع المفرد يدل على التَّعظيم، وقد وَرَدَ هذا اللفظ ﴿إِنَّا﴾ في غير مَوضع من القرآن الكريم، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ [الحجر: ٩]، ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ [الواقعة: ٣٥].

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ مَا المُراد بالقول الثقيل هنا ؟

المراد بالقول الثقيل هو: القرآن الكريم.

- **لماذا وُصف القُرآن بالقولِ الثَّقيل؟**

للمفسرين أقوال كُثر في وصف القرآن بالثقيل، وسأذكر أقوالًا.

- **القول الأول:** قيل: ثقيل في قُوة حُجَجِه، وَرَدِّه للباطل. وقوي في حِكَمِه وَأَحْكَامه على مَرِّ العُصور، وعلى اختلاف أَحوال النَّاس، فالحُجج القَوية بَاقية، تَرُدُّ على كلِ باطلٍ، في كُلِّ زمانٍ، وفي كُلِّ مَكان، وعلى كل من تبناه من إنسان.
- **القول الثاني:** قيل: ثقيل أثناء نُزوله على الرسول -صلى الله عليه وسلم، حتى إنه قد جاء في الحديث عند أحمد وغيره: أنَّه كان إذا نَزَلَ عَليه القرآن وهو على الرَّاحلة، تَضع عُنقها على الأرض[٣٩]، أو بِجِرَانِهَا من ثِقَلِ الوحي.
- **القول الثالث:** قيل: ثقيل، أي: كريم، تقول: فلان ثقيل علي، أي: كريم عندي.
- **القول الرابع:** قيل: الثقيل بمعنى عظيم الشَّأن، ولهذا قالوا في قَوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، لعِظَم شأن الثَّقلين، الإنس والجن.

- ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، قيل: ناشئة الليل هي مُبتدأ الليل، وقيل: ساعة الليل إذا ابتدأت، كما يُقال نشأت السَّحابة، وكلمة ناشئة بلسان الحبشة.
- ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾، قراءة القرآن الكريم مَحمودة في كل وقت، لكن هناك أوقات يتأثر فيها الإنسان أكثر من أوقات أخرى، وأنت تلاحظ هذا الشيء، فإذا صليت في مكان فيه إزعاج وضوضاء، يختلف عن أن تصلي في مكان هادئ، أليس كذلك؟
- ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ ساعات الليل، وبخاصة الساعات الأخيرة، ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أي: أشد موافقة، ﴿لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] ليوافقوا عدة ما حرم الله.
- ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ على النَّفس، على الجوارح، على القلب، ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، أكثر تَعَقُّلًا وتدبُّرًا لما يَقرأه الإنسان، ولما يَسمعه، ولهذا تلاحظ أنه في بعض التي تتحدث عن قيام الليل ككتاب محمد بن نصر المَروزي، والذي اختصره المقريزي: فيه آثار عن السلف، وكلمات لا يَقولها إلا مَن تَلَذَّذَ بقيام الليل، ولا يَستَشعرها إلا مَن أحَسَّ القراءة بقلبه، لهذا قالوا: وطئًا يَتَواطأ السَّمْعَ والقلب، ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

---

[٣٩] أخرج أحمد (٤١ / ٣٦٢) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: "إِنْ كَانَ لَيُوحَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ فَتَضْرِبُ بِجِرَانِهَا" زاد البيهقي في "دلائل النبوة" (٧ / ٥٣) قولها: "مِن ثقل ما يوحي إلى رسول الله".

- ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.
- إنَّ العبادة ومنها قراءة القرآن في وَقت الليل أشد مواطأةً للقلب على ما يسمع، وليس معنى هذا أنَّ هذا خاصٌ بالليل، لكن الليل أكثر، ولهذا كانت أول فائدة في كتاب "الفوائد" لابن القيم، أنَّه ذَكَرَ أمورًا، ثُمَّ ذَكَرَ آية سورة "ق": ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]"، أي: أمورًا لابد منها.
- ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ لما ذَكَرَ أَمْرَ الليل، وأنَّ التِّلاوة والقراءة أشد تواطئًا، أو أشد موافقة للسمع والحفظ على القلب، ذكر أخبار النَّار، ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ قضاء الأشغال، ﴿سَبْحًا﴾ قالوا: تتحرك، تذهب، وتُقبل، وتُدبر.

﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ سُميت السِّباحة بالسِّباحة؛ لكثرة حركة السَّابِح.

﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تقضي فيه حوائجك.

- ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ اذكر اسم ربك، ادع الله تعالى بأسمائه الحسنى، ونستفيد هنا أنَّ الأسماء توقيفية، فما سمَّى الله تعالى به نفسه يُسمَّى به، وما سمَّى النَّبي -صلى الله عليه وسلم- ربه يُسمَّى به.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ادع بأسماء الله الحسنى، ولهذا قالوا: التوسل أنواع، أفضله: التوسل بأسماء الله تعالى، يا رحيم ارحمنا، يا رزاق ارزقنا.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ التبتُّل: الانقطاع، ولهذا يُقال: مَريم البَتُول، وفي نسل الرسول -عليه الصَّلاة والسَّلام-

- التَّبتُّل المنهي عنه في السُّنَّة، هو التشبه بما عِند بعض النَّصارى، ترك التزوج، والانقطاع عن النَّاس، والعُزلة، وتضييع المَصالح.
- التَّبتُّل المشروع: هو أن يجعل الإنسان مِن وَقته تَفرُّغًا للعبادة، ينقطع فيه للتَّعبد، ولا تتعطل فيه المصالح، مثل: الاعتكاف، متى يُسمى الاعتكاف تبتلًا يا شيخ سعد؟
- ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ التوكل لا يكون إلا على الله، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وجاء التوكل في آياتٍ كثيرةٍ، فالتوكل عمل قلبي من أعمال القلوب، وأعمال القلوب هي الأصل، ويأتي بعدها أعمال الجوارح، وهما متلازمان، وأعمال القلوب أصل الأعمال، بل قال بعض أهل العلم كابن القيم: لا يُفرَّق بين المسلم المؤمن الصَّادق والمنَافق إلا بأعمال القلوب، فهم يُصَلُّونَ ويقرءون معًا، أليس كذلك؟ لكن ما في القلوب لا يعلمه إلا الله -عز وجل، ولهذا أعمال القلوب، مثل: الخشية والرجاء والتوكل الخوف، وهناك رسالة عظيمة لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في أعمال القلوب، تسمى "التُّحفة العِراقية".
- ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ الصبر عبادة، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، والصَّبر كما ذكره الله تعالى في سورة العصر: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، وجاء الصَّبر في مواضع كثيرة.

- ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ اصبر على آذاهم، أنت الآن في مكة، وضعيف، ومن السِّياسة الشَّرعية عدم مُواجهة مَن هُو أقوى منك، ولهذا في سورة الزخرف: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [الزخرف: ٨٩]، وفيه أيضًا غابت عن بالي بعض الآيات ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: ٦٦]، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- في مكة كان يواجه، وما كان له عليهم سلطان، وكان الكفار أقوى منه، وتكاتفوا عليه حسًّا ومعنى، والرسول -صلى الله عليه وسلم- أحكم الناس، وأعظم الناس، وأسرع الناس تأديةً لما أمره به ربه ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾.
- ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ المعاندين الذين كابروا وعاندوا واتهموك.
- ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ النَّعمة، والنِّعمة، والنُّعمة.

النَّعمة: التَّنعُّم، والنِّعمة: الإنعام، والنُّعمة بالضم: المسرة.

- ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ مهما طال عمرهم فهو قليل بالنسبة لما سيلقون في الآخرة من العذاب الطويل،
- ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا﴾ الأنكال: الأغلال، وقيل: القيود، أو هذا التعريف أشهر، ﴿أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾.
- ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ جاء وصف الطعام في غير آية، طعام أصحاب النار، أحد يذكر آية، أو آيات فيها وصف لطعام أهل النار؟.﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦].

غسلين، وكذلك الضريع، وهذه الأطعمة يقولون: صعبة، لا تخرج ولا تدخل، إذا -عفا الله وإياكم- أكلوها تبقى معلَّقة، فيتعذبون بعدم إخراجها مع قُبحها، وبعدم دخولها مع قُبحها.

- ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ الرجفة اهتزاز، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧].

الأرض جاء لها في القرآن الكريم عند قيام الساعة أوصاف: الزَّلزلة، والرَّجفة، والجبال جاء لها أيضًا أوصاف، قيل: ترتجف الجبال، فتكون كَثِيبًا مَّهِيلًا، كالرَّمل، إذا أخذت منه يتساقط، ثم بعد ذلك ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ ذكر المثال من الأمم السابقة؛ حتى نعتبر، وأن الإنسان بعد رحمة الله لا ينفعه إلا عمله الصالح، ومن قبلنا فيهم التجار، وفيهم الفقراء، وفيهم الوجهاء، وفيهم الضعفاء، وهلم جرا، أجناس مختلفة في كل عصر، فجاءهم رسول، وجاءنا رسول، بلغوا رسالات ربهم، ونصحوا أممهم حق النصح، ومحضوهم حق النصح، وكانت العاقبة لمن أطاع الظفر، ولمن عصى الخسران، ولا يظلم ربك أحدًا.
- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾.

رأس الأُمَّة، رأس القوم، ومع ذلك عاند، ولم ينفعه جاهه، ولا حسبه، ولا منصبه.

فإذا قرأ الإنسان مثل هذا، عرف أن الله تعالى عدل، يعطي من يشاء بفضله، ويمنع من يشاء بعدله.

- ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أخذًا شديدًا، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، التعبير بالأخذ في مقام العقوبة، دليل على شدة العقوبة.
- ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ أي يوم هذا؟ طبعًا معروف، يوم القيامة. يحصل للناس أحوال في يوم القيامة، يصعب أن تكون في الدنيا، مهما بلغ الحال بهم، يعني أشياء فطرية في النفس، أشياء جِبِلِّيَّة في النفس، في الدنيا عند المسلمين وغير المسلمين، لكن في الآخرة تتغير تلك الأشياء الفطرية الجِبِلِّيَّة، مثل ماذا؟ مطلع سورة الحج: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]، الآن في الدنيا، المرضعة التي معها الطفل، الأم، ما يمكن تغفل، إلا في شيء شديد، لكن في القيامة ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾، ثم: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ٢].
- ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾، يشيب، غلمان ما جاءهم الشيب، لكن من شدة الهول.
- ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ جاءت الآية في أحد يذكر في وصف السماء عند قيام الساعة، جاءت آيات أو سور؟ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، وهنا ذكر ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ تنشق هذه السماء العظيمة الارتفاع الشاهقة السميكة، كذلك ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، فهذا من علامات، أو أن هذه الأمور العظيمة، تلك السنن الكونية تتغير عند قيام الساعة.
- ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ هذا القرآن الكريم، وما سبق من آيات، ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، يعني الإنسان الآن عنده الطريق، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، النجدان: طريق الخير والشر، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥- ١٠]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

يعني بيَّن الله الحجة والمحجة وأقام السبيل، وبيَّن الطريق، وليس لأحدٍ حجة.

- ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾.

الذكرى قد تنفع أناسًا، وقد لا تنفع آخرين، طيب لو قال قائل: ما آثار نفع الذكرى لصاحبها؟ أختصر لكم الطريق، فيه آية في سورة النساء: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦- ٦٨]، واحدة تكفي فضل وفخر، فكيف بها مجتمعة.

- ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، طريق الرضا، وطريق طاعة الله تعالى.
- ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ذكر بعض أهل التفسير أن هذه الآية فيها التخفيف من الله تعالى، على ما كان في أول السورة، حتى قال بعضهم: أن بين أول السورة وآخرها وقت، قدَّره بعضهم بسنة، وقدَّره بعضهم بأقل أو أكثر.

وهنا ذكر الله تعالى أنهم لن يستطيعوا القيام بما كُلِّفوا به، فخفف عنهم، ورحمهم، وعذر من كان له عذر، مثل المريض، ومن يذهب يضرب في الأرض يبتغي تجارة، ومثل من يجاهد في سبيل الله، حتى قال بعضهم: في هذه الكلمة ﴿يُجَاهِدُونَ﴾ علامة من علامات النبوة، كيف ذلك؟ قال: لأن السورة في أول الأمر، وأخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأنه في الجهاد سيسقط عنهم القيام؛ لاشتغالهم بالجهاد، فهذه علامة من علامات النبوة، وهذا من فضل الله أن المعذور عن الطاعة إذا تركها مع رغبته فيها، لكن منعه مانع، فإن الأجر يجري عليه.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

